مــن أوراق

أدب ونــصــــوص

عصـــــر صــــــدر الإسلام

دكتور
عبد الوارث عبد المنعم الحداد

الأستاذ في جامعة الأزهر



﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾

وبعد ...

فهذه طاقة من نصوص نثرية وشعرية، انتخبتها من دوحة الأدب في عصر: صدر الإسلم، وقمت بعرضها. وتجلية كوامنها الثمينة؛ لأحقق للمتلقي متعة لم يكن ليحصل عليها لولا ما وفقني الله إليه من استقراء، واستنطاق الألفاظ والعبارات والصور، وما توحي به من دلالات جاذبة مستملحة، مستعرضًا ما انبجست عنه المعاني المشعة من خلال العواطف المشتجرة، والموسيقى العذبة الحالمة.

والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الهدى والصلاح.

والله من وراء القصد.

دكتور/ عبد الوارث الحداد
أستاذ ورئيس قسم الأدب
كلية اللغة العربية بالمنصورة

حول غزوة بدر

تنويه:

أولاً: في "تفسير القرطبي" المجلد الثاني، ص (1433) (كتاب الشعب) عن "محمد بن سعد" في "الطبقات" أن غزوات الرسول – صلى الله عليه وسلم – سبع وعشرون، وسراياه ست وخمسون، وفي رواية ست وأربعون، وفي رواية ثالثة ليست "لابن سعد" أنها سبع وأربعون، وقد اكتفيت من ذلك بالمشهور وهو أن غزوة بدر سبقت بأربع غزوات وأربع سرايا.

ثانيًا: أفدت في دراسة الغزوات والسرايا، والمقدمات التي سبقت غزوة بدر الكبرى من كتب : "السيرة النبوية" لابن هشام جـ 2 من المجلد الأول، مكتبة زهران، و"الرحيق المختوم" لِصَفِيّ الرحمن الْمُبارَكْفُوري الهندي، دار الرحمة للنشر والتوزيع، وفي "ظلال القرءان" المجلد الثالث للأستاذ "سيد قطب"، دار الشروق، و"معارك الإسلام في العصر النبوي" للدكتور محمد رجب البيومي، مطبعة السعادة.

وقد صادفت خلافًا في عدد الذين خرجوا في هذه الغزوات والسرايا، وخلافًا آخر في أسماء الشهور التي وقعت فيها، ولم أشأ أن أحقق هذه الخلافات؛ لأن الأمر لا يعدو أن يكون ضوءًا كاشفًا فقط، وحسبي منه ما ذكرت.

ثالثًا: اعتمدت – بعد الله تعالى – في التفسير على كتب:

"السيرة النبوية" لابن هشام، و"في ظلال القرءان"، و"تفسير القرطبي" – المجلد الرابع – و"الجلالين"، وتفسير العلامة أبي السعود المسمى: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" دار الفكر بيروت، و"التفسير الواضح" للدكتور محمد محمود حجازي، دار الجيل بيروت، وعلى ما أفاء الله به عليّ من إشراقات بيانية ربانية أشكره عليها شكرًا أعترف أنه لا يكافئ نِعَمَهُ.

والله من وراء القصد

كلنا يعرف ما أنزلته قريش بالرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته من هوان واضطهاد وتنكيل؛ لأنهم سلكوا الطريق الصحيح، وعرفوا المعبود الحق عندما كلف الله تعالى نبيه – عليه السلام – بتبليغ دعوة الإسلام، وكيف ضيق هؤلاء الكفار على المسلمين في مكة حتى صارت أرضها لا تنبت بذور الإسلام إلا بصعوبة ومحدودية، مما اضطر معه المسلمون إلى الهجرة إلى يثرب لتتهيأ لهم فرصة الانتشار ومزاولة شعائر العبادة في أمن وسكينة واستقرار نفس، تاركين وراءهم أموالهم وأهليهم وأراضيهم، وقد انفصلوا عن مكة

مكرهين لا راغبين، مع شدة حبهم لمسقط رءوسهم، مما حدا بالرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يفصح عن ذلك بقوله عند الهجرة:

"والله يا مكة، إنكِ لأحبُّ أرض الله إلى الله، وإنكِ لأحبُّ أرض الله إليَّ، ولولا أن أهلَكِ أخرجوني منكِ ما خرجت".

وقد كانت قريش لا تترك مهاجرًا في أيديها إبان الرحلة إلا وتخيره بين سلب روحه أو أمواله – كما حدث مع صهيب الرومي – فيدلهم على ماله لينجو بنفسه إلى الله ورسوله.

وعندما انحسرت موجات الهجرة المتتابعة والمتقطعة، كان هناك فريق من الرجال والنساء من ضعاف المسلمين لم تمكنهم ظروفهم من الهجرة، فكان تعذيب قريش لهم أشد، وانتقامها منهم أفظع.

أضف إلى ذلك أن قريشًا حاولت تأليب العرب واليهود على المسلمين بعقد التحالفات معهم ضد الإسلام والمسلمين.

لكل هذه الأسباب المجملة، كان لزامًا على الرسول – بوحي من ربه – أن يعلن لقريش أنه لم يعد ضعيفًا مهيض الجناح هو وصحابته كما كان عليه الحال وهم في مكة، بل صار لهم من القوة ما يمكنهم من استرداد أموالهم

وممتلكاتهم، وحماية إخوانهم في الدين ممن ظلوا على القهر في مكة، وقد قال الله تعالى فيهم:

"وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرًا"[1].

وكان من وسائل استرداد الحق المغتصب أن سيّر الرسول – صلى الله عليه وسلم– بعض السرايا وغزا مع أصحابه بعض الغزوات في أعداد محدودة لم يكن القصد منها حربًا وقتالاً، بل كان الهدف هو الإخافة والتهديد والإنذار حتى يُغيّروا من نظرتهم إلى الإسلام وتعاملهم مع المسلمين، وليعلموا أن الفتح قادم لا محالة؛ لأن الله تعالى قطع العهد على نفسه بذلك، وأن الهزيمة ستحيق بقوى الشر والبطش والظلم والغدر، من أجل ذلك سبقت غزوة بدر بأربع غزوات وأربع سرايا على المشهور.

الغزوات:

[1] سورة النساء. الآية رقم (75).

كانت أولى غزوات الرسول – فيما قبل بدر – غزوة (وَدّان) أو (الأبواء) في شهر "صفر" على رأس اثني عشر شهرًا من مقدمه – صلى الله عليه وسلم – المدينة (أغسطس 623 م) . وقد استخلف على المدينة "سعد بن عبادة" وقد خرج في سبعين من المهاجرين ، وكان الرسول – عليه السلام – يريد بهذه الغزوة "قريشًا" و"بني ضمُرة"، إلا أن "بني ضمرة" وادعته، فرجع إلى المدينة دون حرب في نفس الشهر – صفر – وقد حمل اللواء "حمزة بن عبد المطلب".

أما الغزوة الثانية: فكانت في (ربيع الأول) على رأس ثلاثة عشر شهرًا من مهاجَره، (سبتمبر 623 م) وهي غزوة (بُواط) وخرج الرسول في مائتين من صحابته لمجرد أن يتعرض لعير قريش فيها "أمية بن خلف" الذي كان معه مائة من قريش، وألف وخمسمائة بعير، أو ألفا بعير، وقد حمل اللواء في هذه الغزوة "سعد بن أبي وقاص" واستخلف على المدينة هذه المرة "سعد بن معاذ" وعاد – عليه السلام – دون قتال، بعد أن مكث بها أيام من (جمادى الأولى).

والغزوة الثالثة: هي غزوة (العُشيرة) وقد وقعت فيما تبقى من شهر (جمادى الأولى)، وأيامًا من (جمادى الآخرة) (نوفمبر وديسمبر 623 م). وقد خرج الرسول في مائة وخمسين أو مائتين من المهاجرين، وقد فاتته العير التي

كانت في طريقها من مكة إلى الشام، وهي العير التي خرج في طلبها وهي عائدة من الشام، وكانت سببًا في غزوة بدر الكبرى، وتمت فيها الموادعة بين المسلمين و"بني مدلج" وحلفائهم من "بني ضمرة" ، ولم يحدث فيها قتال، وقد استخلف على المدينة "أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي" وحمل فيها اللواء "حمزة بن عبد المطلب".

والغزوة الرابعة: هي غزوة (سفوان) وتسمى (غزوة بدر الأولى) وكانت في شهر (جمادى الآخرة) (ديسمبر 623م) ؛ إذ لم تمض على الرسول في المدينة بعد عودته من غزوة (العُشيرة) إلا بضع ليال لا تبلغ العشر، وكان سببها أن أغار "كرز بن جابر الفهري" على سرح المدينة – مراعي المدينة – ونهب بعض المواشي، فخرج الرسول في تأديبه وطارده في سبعين من أصحابه حتى بلغ (وادي سفوان) مما يلي (بدرًا) إلا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– لم يدركه، فرجع إلى المدينة دون قتال – طبعًا – وكان "علي بن أبي طالب " هو حامل لواء الرسول – عليه السلام – في تلك الغزوة ، وكان قد استخلف على المدينة في هذه الغزوة، "زيد بن حارثة".

السرايا:

أما عن السرايا الأربع فكان أولها (سرية حمزة) أو (سِيف البحر) وقد وقعت في (رمضان) على رأس "سبعة أشهر من الهجرة – على أرجح الأقوال " (مارس 623 م) وقد توجه "حمزة" بثلاثين مهاجرًا إلى ساحل البحر للقاء قافلة لقريش على رأسها "أبو جهل " الذي كان معه ثلاثمائة من أهل مكة، وقد أصيب "أبو جهل" ومن معه برعب شديد؛ لأنهم ظنوا أن "حمزة" ورفاقه مقدمة جيش كبير، وكاد الفريقان يحتربان إلا أن "مجدي بن عمرو الجهني" استخدم موادعته للفريقين للتفريق بينهما، فلم يحدث بينهما حرب، وقد عقد أول لواء في الإسلام لـــ"حمزة" ؛ لأن سريته كانت أولى السرايا والغزوات جميعًا، وقد حمل فيها اللواء "أبو مرثد كناز بن حصين الغنوي".

والسرية الثانية: هي سرية "سعد بن أبي وقاص" وكانت في شهر ذي القعدة من العام الأول للهجرة (مايو 623 م) وقد خرج "سعد" في عشرين

من المهاجرين متوجهين إلى الْخَرَّار بأرض الحجاز، وقد حمل اللواء المعقود "لسعد" "المقداد بن الأسود" وكان الهدف هو التعرض لعير كانت لقريش، ولأنهم كانوا يكمنون بالنهار، ويسيرون على أقدامهم ليلاً فقد تأخروا عن الوصول في الوقت المناسب حتى فاتتهم العير قبل أن يصلوا إلى مكانها بيوم واحد.

والسرية الثالثة: كانت في شهر صفر قبل أن يعود الرسول – صلى الله عليه وسلم – من غزوة "ودان" أو بعد أن وصل المدينة وكانت الغزوة بإمرة (عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب) في عدد ما بين الستين والثمانين من المهاجرين، وقد وصل في مسيره إلى ماء بالحجاز أسفل ثنية الْمُرة، فرأى جمعًا كبيرًا من قريش على رأسهم "عكرمة بن أبي جهل" أو "مكرز بن حفص" ولم يحدث بين الفريقين قتال، وإن كان "سعد بن أبي وقاص" رمى بسهم، فكان أول من رمى بسهم في الإسلام.

والسرية الرابعة: والأخيرة هي سرية "عبد الله بن جحش" وتسمى سرية "نخلة" وكانت في شهر رجب من العام الثاني للهجرة (يناير 624 م) وكانت وجهتها (نخلة) بين مكة والطائف لرصد أخبار قريش وعيرها، وقد طلب إليه ألا يستكره أحدًا من أصحابه الاثنى عشر مهاجرًا، والثمانية من

الحلفاء؛ لأن (نخلة) قريبة من ديار الشرك، مما يقوي احتمال قتال عنيف بين الطرفين، ومع ذلك فلم يتخلف منهم أحد، وهي السرية الوحيدة التي حدث فيها قتل وأسر وغنيمة، وقد وقع القتل في اليوم الأخير من رجب، وقد طلب عقلاء السرية أن يتأخر القتال الذي اتفقوا عليه بعد محاورة إلى شهر ذي القعدة، ولكن تغلب المتحمسون.

أما القتل فقد رمَى "واقد بن عبد الله التميمي" – من الحلفاء – رمَى "عمر بن الحضرمي" بسهم فقتله، **وعن الأسر** فكان لـــ "عثمان بن عبد الله" و"الحكم بن كيسان" وقد استولت السرية على عير قريش، وعاد "عبد الله بن جحش" بالعير والأسيرين إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي أنكر عليهم القتل في الشهر الحرام (رجب) كما لامهم إخوانهم على ما فعلوا، وكان ما حدث فرصة استغلتها قريش للتشنيع على المسلمين، وفرح اليهود لذلك الحدث ظنًا منهم أن الحرب ستدور على المسلمين وتطحنهم وتأكلهم.

وقد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعدم التصرف في الأسيرين والغنائم حتى يترل فيهم قرآن، فترل قول الله تعالى:

"يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل"[1].

هذه الغنيمة كانت أول غنيمة غنمها المسلمون، و"عمر بن الحضرمي" أول من قتله المسلمون، و"الحكم بن كيسان" أول من أسره المسلمون، وكان في أسره خير له؛ إذ أسلم وحسن إسلامه، وعندما طلبت قريش فداء الأسيرين – قبل إسلام "الحكم بن كيسان" – قال لهم الرسول – عليه السلام –:

"لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا؛ فإنا نخشاكم عليهما، وإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم".

وكان "سعد بن أبي وقاص" و"عتبة بن غزوان" – من الحلفاء – قد تخلفا عن الركب؛ لأن عيرهما قد ضل منهما، فتخلفا للبحث عنه، فلما قدما المدينة وافق الرسول على الفداء.

هذه السرايا يلاحظ فيها أمران:

[1] سورة البقرة. الآية رقم (127).

الأول: أن المشاركين فيها كانوا من المهاجرين فحسب، و لم يخرج أحر فيها من الأنصار؛ لأن بيعتهم كانت على الدفاع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – داخل المدينة.

الثاني: أن عدد المشاركين في السرايا – والغزوات أيضًا – كان ضئيلاً بالنسبة لعدد الجانب الآخر، مما يؤكد أن الحرب لم تكن هدفًا، حتى في سرية "عبد الله بن جحش" التي حدث فيها قتال، إنما كان القصد هو التخويف، وتبديد أوهام الكفار بأن المسلمين ما زالوا على ضعفهم.

إرهاص بهزيمة وانتصار:

هذا الإرهاص يتجلى في رؤيا منامية رأتها "عاتكة بنت عبد المطلب" يقول مؤداها:

إنها رأت رجلاً قادمًا إلى مكة على بعيره فزعًا مذعورًا، ولما وصل بطحاء مكة أخذ يهتف بأعلى صوته في قريش : أن انفروا إلى مصارعكم، وطلب إليهم أن يتجهزوا لهذا النفير في ثلاث ليال، فهرع الناس إليه مذعورين يستجلون حقيقة الخبر، وتبعوه حتى دخل المسجد ، وهناك كرر الهتاف مرة أخرى، ثم أسرع به بعيره إلى قمة جبل أبي قبيس – شرقي مكة – وكرر

الهتاف مرة ثالثة، ثم أخذ منها صخرة، ورمى بها من تلك القمة، فما إن وصلت إلى سفح الجبل حتى تناثرت أجزاؤها ودخلت على أهل مكة بيوتهم.

هذه الرؤيا أفزعت "عاتكة" وأفزعت أخاها "العباس بن عبد المطلب" الذي قصت عليه رؤياها حتى تستريح نفسها المفزعة، وقد طلبت إليه أن يكتم الخبر، إلا أنه لم يستطع كتمانه عن صديقه "الوليد بن عتبة" الذي لم يستطع بدوره كتمان الخبر عن أبيه " عتبة " حتى شاع الخبر وانتشر في أندية قريش.

وفي صباح اليوم التالي ذهب "العباس" إلى الكعبة طائفًا، فوجد "أبا جهل" يحدث الناس برؤيا "عاتكة"، وما إن انتهى "العباس" من طوافه حتى ابتدره "أبو جهل" متهكمًا قائلاً: "يا بني عبد المطلب" متى حدثت فيكم هذه النبيَّة؟.. أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال – صاحب الهتاف - : انفروا في ثلاث فستنربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث و لم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب، فتلقى "العباس" هذه السخرية بصبر دون أن ينكر على "أبي جهل" شيئًا.

وهنا تبرز نساء "بني عبد المطلب" وتعنف "العباس" على قبوله تلك السخرية، و لم تحدث منه غيرة عليهن بعد أن تناولهن "أبو جهل" بالحديث

الساحر، فغلى الدم في شرايين "العباس" وتوجه صبيحة اليوم الثالث إلى الكعبة لمحاسبة "أبي جهل" وما إن وصل إلى البيت حتى وجد الذعر يستولي على "أبي جهل" فظن أنه خافه وفزع منه، فلجأ إلى الهرب، والحقيقة أنه لم يحدث من ذلك شيء، إنما الذي حدث أن الرؤيا قد بدأت تتحقق بوصول "ضمضم بن عمرو الغفاري" في صراخ وهلع، وقد قطع أذن بعيره، وحول رحله بأن جعل ظهره إلى رأس البعير – والعرب لا تفعل ذلك إلا لأمر جلل – وشق ثوبه، ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش: اللطيمة – يقصد بها العير التي رجعت محملة بالتجارة من الشام – أموالكم مع "أبي سفيان" قد عرض لها محمد في أصحابه، وكان "ضمضم" قد أرسله "أبو سفيان" في نجدته بعد أن علم أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – خرج يتعرض لهذه القافلة التي قام بحراستها ثلاثة وأربعون رجلاً، وكانت فيها أموال كثيرة، وتجارة عظيمة، وقد استطاع "أبو سفيان" النجاء بالقافلة بعد قصة مؤداها أن الرسول – عليه السلام – أرسل "بسبس بن عمرو الجهني" حليف بني ساعدة و"عدي بن الزغباء الجهني" حليف بني النجار يتحسسان أخبار القافلة فنزلا بتل قريب من بدر، ثم أخذا يستقيان في قربة بالية فسمعا جاريتين تستقيان تتشاجران بديْن لأحدهما على الأخرى، فتقول المدينة لصاحبتها: إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد فأعمل لهم ثم

أقضيك الذي لكِ، فصدقهما على هذا الموعد "مجدي بن عمرو الجهني" الذي كان على الماء ثم رجع "بسبس" و"عدي" وأخبرا الرسول – عليه السلام – الخبر.

ولما ورد "أبو سفيان" المكان سأل "مجدي الجهني" عن رؤيته لأحد يخشاه "أبو سفيان" فقال: لا، إلا أني رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل واستقيا ثم انطلقا، فذهب "أبو سفيان" إلى المكان الذي أناخ فيه البعيران وفرك من أبعارهما، فإذا فيه النوى فقال: هذه والله أعلاف يثرب، فتأكد أنه مطلوب بقافلته من قبل المسلمين، فغير الطريق وسلك ساحل البحر مخلفًا بدرًا عن يساره.

فخرجت قريش لم يتخلف من أشرافها إلا "أبا لهب بن عبد المطلب"؛ حيث أرسل مكانه "العاص بن هشام بن المغيرة" عوضًا عن دين كان عليه لـــ"أبي لهب". أما "أمية بن خلف" فقد أجمع أمره على عدم الخروج بعد أن أخبره "سعد بن معاذ" أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سيقتله، إلا أن "عقبة ابن أبي معيط" و"أبا جهل" حركا فيه العصبية الجاهلية، فخرج مع الخارجين، بعد أن اشترط عليهما أن يبتاعوا له أفضل بعير في الوادي، فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة درهم من نعم بني "قشير" وقد غنمه المسلمون فيما غنموا.

ومن تورط في الخروج – كارهًا – "العباس بن عبد المطلب" عم الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

وكان "أبو جهل" أكثر القرشيين اهتياجًا لحرب المسلمين لأمر قديم في نفسه عندما كان صبيًا والرسول في سنه دُعيا لمأدبة أقامها "عبد الله بن جدعان" فتزاحما، فدفعه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فوقع على ركبته مما ترك فيها أثرًا عرفه به "عبد الله بن مسعود " بين الجرحي.

وسبب آخر أهاج "أبا جهل" هو حقده على الإسلام والمسلمين والذي أشعله اقتناع الناس بصدق رؤيا "عاتكة"؛ حيث انقسم الناس فمنهم من قال: والله إن أخذ محمد عيرنا فلن تفلح قريش أبدًا، ومنهم من قال: سينتصر محمد وتصدق رؤيا "عاتكة" فثارت ثائرة "أبي جهل" ودفعته تلك الثورة لأن يكون أول المستفتحين في غزوة بدر ؛ حيث قال: "اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا – أكثرنا إتيانًا – بما لا يعرف فأحْنِه الغداة – أهلكه أول النهار – فكان هو المستفتح – طلب الحكم على نفسه – .

ومن تقدير الله اللطيف أن كانت العصبية سببًا من أسباب النصر، يبدو ذلك في أن "طالب بن أبي طالب" كان ينوي الخروج مع الخارجين، إلا أن

بعض القرشيين حاوره قائلاً: والله لقد عرفناكم يا بني هاشم — وإن خرجتم معنا — إن هواكم لمع محمد ، فرجع "طالب" مع من رجع إلى مكة.

وكان هناك عقلاء من قريش وأنصارهم يكرهون الخروج ويحضون على تجنبه ، منهم "الحارث بن عامر" ، و"أمية بن خلف" على نحو ما ذكرت، و"عقبة بن أبي ربيعة" وأخوه "شيبة" و"حكيم بن حزام" و"أبو البختري بن هشام" و"علي بن أمية بن خلف"، و"العاصي بن منبه" إلا أنهم خرجوا تحت حرج من "أبي جهل" و"عقبة بن أبي معيط" و"النضر بن الحارث"، وقبل أن يخرج هؤلاء حاول بعضهم جاهدًا أن يمنع إراقة الدماء مثل: "حكيم بن حزام" الذي طلب إلى "عتبة بن ربيعة" أن يكف قريشًا — وعلى رأسها أبا جهل — عن الحرب، وأن يدفع دية حليفه " عمرو بن الحضرمي" الذي قتل في سرية "عبد الله بن جحش" وقد اقتنع "عتبة" بما أشار به "حكيم" وأشار إلى الناس في خطبته بينهم أنه لا قبل لهم بمحمد[1]، وأنهم إن واجهوا أصحابه فسوف يرون

(1) مشيرًا إلى ما ذكره "عمير بن وهب" حين بعثت به قريش لمعرفة عدد المسلمين، فرجع إليهم وقال لهم: إني رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يُقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَروا رأيكم.

من قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من قومه، وكلهم أقاربكم وإخوانكم، فخلوا بينه وبين العرب، فإن هزموه فقد استرحتم منه، وإن انتصر عليهم فسوف يحفظها يدًا لكم عنده.

إلا أن أبا الحكم "أبا جهل" حين بلغه ذلك اعتبر "عتبة" قد جبن وخاف على ولده "أبي حذيفة" الذي كان مسلمًا مع المسلمين، ومع أن "أبا سفيان" بعد أن نجا بالقافلة أرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فقد نجاه الله فارجعوا، إلا أن "أبا جهل" قال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع العرب بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا.

وممن كان حكيمًا في هذا الموقف "الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي" الذي كان حليفًا لبني زهرة؛ إذ خطب في بني زهرة وهم بالجحفة مشيرًا إلى أن الله نجى أموالهم وكتب السلامة لصاحبهم "مخرمة بن نوفل" وأن خروجهم كان من أجل حماية المال والأهل من بني زُهرة، فلا داعي بعد ذلك لأن يقاتلوا "محمدًا" وصحبه، فاستجابوا له، ولم يشهد بدرًا واحد من بني زهرة، وكذلك فعل بنو عدي بن كعب – وهم بطن من بطون قريش –.

وانتقلت الحكمة من المشركين إلى النصرانيين متمثلة في "عداس" الذي أخذ يشجع "شيبة" و"عتبة"[1] ابني ربيعة على عدم الخروج، وقد استجابا له، إلا أنهما تورطا في الخروج بعد ذلك، ومع هذا كله فقد تغلب رأي الحرب.

وقد أخذت قريش تعد العدة في ثلاثة أيام – أو يومين – تطغيها الحماسة الشديدة بأن كان يعين قويُّهم ضعيفَهم، وغنيُّهم فقيَرهم، وحدث ما كنا نسميه بالمجهود الحربي في عصرنا الحديث ، وكان الداعي إلى ذلك "نوفل ابن معاوية " ؛ حيث طلب إلى أثرياء قريش أن يبذلوا النفقة والدواب لمن يخرج إلى هذه الحرب، فانبرى "عبد الله بن أبي ربيعة" وتبرع بخمسمائة دينار، وفوضه في إنفاقها كيفما يشاء، وتقدم "حويطب بن عبد العزى" بمائتي دينار، ثم تتابع التبرع، وتولّى الطعام، وفي مقدمة المطعمين "العباس بن عبد المطلب" من بني هاشم، و"عتبة بن ربيعة" من بني شمس، ومن بني نوفل "الحارث بن عامر بن نوفل"، و"طعيمة – طعمة – بن عدي بن نوفل " ومن بني أسد – رهط خديجة رضي الله عنها – "أبو البختري بن هشام "، و"حكيم بن حزام بن خويلد" ،

---

[1] مما يحسب لــ "عداس" هذا رقة قلبه للرسول – صلى الله عليه وسلم – عندما رآه يؤذى من أهل الطائف يوم أن عرض نفسه ودينه عليهم، فأغروا به صبيانهم وسفهاءهم حتى أدموا قدميه الشريفتين، فلجأ إلى بستان مخدوميه "شيبة" و"عتبة"، واندفع يقبل يدي وقدمي الرسول – عليه السلام –.

ومن بني عبد الدار "النضر بن الحارث" ومن بني مخزوم "أبو جهل بن هشام"، ومن بني جمح "أمية بن خلف"، ومن بني سهم "نبيه ومنبه ابنا الحجاج"، ومن بني عامر "سهل بن عمرو".

وقد حاولت قريش تصفية مشكلاتها بين بعض القبائل قبل المسير حتى تأمن شر هذه القبائل خوفًا من أن تطعنها من الخلف إذا خرجت لحرب المسلمين، وحتى تأمن أيضًا عدم تحالفها مع المسلمين كيدًا منها لقريش، ذلك أن بني بكر كان لها دم في قريش، فقتلوا في مقابله غلامًا لــ"حفص بن الأخيف القرشي" وسعت قريش لتصفية النزاع، واتفق الفريقان على حقن الدماء، وقالوا: رجل برجل، ولكن "مكرز بن حفص بن الأخيف" أخذ بثأر أخيه – الغلام – ممن شجع على قتله ، وهو "عامر بن يزيد بن عامر بن الملوح" وانشغلت قريش عن ثأرها بمحاربة المسلمين.

وقد خرجت قريش في ثلاثة أضعاف المسلمين؛ إذ بلغ عددهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً، منهم مائة فرس بمائة فارس من دارع غير دروع الراجلين، وبلغت الإبل سبعمائة ناقة، وقد خرجوا في مواكب الخيلاء والتعالي والتكبر، مصطحبين المغنيات اللاتي كن يملأن المكان والأسماع بغنائهن على ضربات

الدفوف وعلى رائحة الشواء المنطلقة من الجزر المنحورة كأهم في رحلة ترفيهية.

وعلى الجانب الآخر نرى المسلمين في عدد ينحصر في نحو من ثلاثمائة وتسعة عشر[1] قد يزيدون قليلاً، ولم يكن معهم إلا فرسان "للزبير بن العوام" و"المقداد بن الأسود" ومن الإبل سبعون يعتقب على الواحدة الرجلان والثلاثة، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعتقب بعيرًا واحدًا هو و"علي بن أبي طالب" و"مرثد بن أبي مرثد الغنوي".

وقد قسم "ابن القيم" عدد المجاهدين فنسب إلى المهاجرين ستة وثمانين، والأوس واحدًا وستين، ومن الخزرج مائة وسبعين، وبرر لقلة عدد الأوس عن الخزرج – مع أهم أكثر قوة وشوكة وصبرًا – ؛ لأن دعوة الرسول – عليه السلام – بالأوس جاءت بغتة، ولأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، ولم

---

[1] حسم "أبو أيوب الأنصاري" العدد عندما قال: فخرجنا – يعني إلى بدر – فلما سرنا يومًا أو يومين أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نتعاد، ففعلنا، فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبي – عليه السلام – بعدتنا فسُرَّ بذلك، وحمد الله. وقال: "عدة أصحاب طالوت" (القرطبي المجلد الرابع، ص 2809). وعدة أصحاب طالوت في –روايته – هو هذا العدد الذي بقي من أربعة آلاف مقاتل عبروا معه النهر، فلما رأوا جالوت في مائة ألف رجل رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون . (القرطبي المجلد الثاني ص 1062).

يكونوا على أهبة الاستعداد، أما الخزرج فكانت بيوتهم قريبة من المسجد وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يكن قد فرض على المسلمين هذا اللقاء – لقاء قريش – وقد حاول بعض الأوسيين أن يعطيهم الرسول – عليه السلام – فرصة التجهز للحرب بأن يذهبوا إلى رواحلهم فأبى، وقال: لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرًا.

توجهت قريش صوب المدينة حتى نزلوا بالعدوة القصوى، وقد اتخذت "عمير بن وهب الجمحي" عينًا لها على المسلمين فأوقفها على عددهم، وقد عقد اللواء "للنضر بن الحارث" ومن بعده لـــ"أبي عزيز بن عمير" شقيق "مصعب بن عمير".

أما الرسول – عليه السلام – وصحابته فقد خرجوا على بركة الله ، وعندما دنوا من بدر علم بخروج قريش لملاقاتهم ، فاستشار من معه في أمر الحرب أو العودة، فقال "أبو بكر" ما أراح قلب الرسول، ومثل ذلك فعل "عمر" وأضاف قائلاً: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت مذ عزت، والله ما آمنت مذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبدًا ولتقاتلنك، فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته. وقال "المقداد بن الأسود" قولته الخالدة:

"يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون" ولكن "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"، والذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد – أقصى اليمن – لسرنا".

فرضي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن قوله، ودعا له بخير، ولما وجد الرسول – عليه السلام – أن المتحدثين كلهم من المهاجرين أراد أن يستوثق من الأنصار؛ لأنه ظن أنهم عندما عاهدوه في بيعة العقبة الثانية على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم أن المنع والحماية له ستكون داخل المدينة فقط، فتوجه إلى الأنصار قائلاً: "أشيروا علي أيها الناس". فقام "سعد بن معاذ" وقال: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال الرسول – عليه السلام – : أجل. فتكلم "سعد" بما يفيد سبب سكوت الأنصار، وهو أنهم سكتوا عن التعليق لأن الرسول خرج للعير، والعير قد أفلتت، وهو الآن يريد النفير، وأن الوحي قد نزل بذلك، فليس أمامهم إلا الانصياع للوحي. ثم قال:

"إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق ، فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا، على السمع والطاعة ، فامض بنا يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي

منا رجل، وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لي بها من علم، وما نكره أن تلقى عدونا غدًا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عيناك".

ثم أضاف اقتراحًا ببناء عريش للرسول – صلى الله عليه وسلم – في مؤخرة الجيش، وتترك رواحل الرسول حوله، فإن انتصر المسلمون فهذا ما يحبونه، وإن انهزموا تمكن الرسول – عليه السلام – من العودة سالمًا إلى المدينة على تلك الرواحل، فتقبل الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذا الاقتراح بقبول حسن. واطمأن بما سمع على ارتفاع روح جنوده المعنوية، ودعا لهم قائلاً:

"سيروا على بركة الله ،فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

وعقد ثلاثة ألوية لـــ "مصعب بن عمير" و"علي بن أبي طالب" و"سعد بن معاذ".

ويلجأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى تكوين فرقة استطلاعية لتقف على موضع للماء، تشكلت من "علي بن أبي طالب"، و"الزبير بن العوام"

و"سعد بن أبي وقاص" و"بسبس بن عمرو" ، وأشار عليهم بجبل صغير قريب من بئر ماء، وفعلا وجدوا بئرًا ترتوي منه قريش بواسطة مجموعة من أفراد الجيش فر معظمهم وفيهم رجل يسمى "عجيرًا" علمت منه قريش أن المسلمين أخذوا بقية أفراد الجماعة، وهم" عريض أبو يسار" وغلام "عبيدة بن سعيد بن العاص" و"أسلم" غلام "منبه بن الحجاج" و"أبو رافع" غلام "أمية بن خلف" وقد اعترفوا للمسلمين بأنهم كانوا ينقلون الماء إلى قريش التي تتمركز خلف الجبل الذي أشار عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فلم يصدقهم المسلمون، وضربوهم، فاضطروا للكذب لينجوا من الضرب، فقالوا: نحن لأبي سفيان ونحن في العير، فتوقفوا عن ضربهم، فلما انتهى الرسول – عليه السلام – من صلاته قال: "إن صدقوكم ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم"؟ .

ثم أقبل – صلى الله عليه وسلم – يسألهم، فأخبروه بأن قريشًا خلف هذا الكثيب – الجبل الصغير – وأنهم ينحرون يومًا عشرًا ويومًا تسعًا، فتوقع الرسول – عليه السلام – أن عدد الكفار ما بين التسعمائة والألف، وأخبروه عن أشراف قريش الذين اشتركوا في الخروج، وهم : "عتبة بن ربيعة" وأخوه "شيبة"، و"أبو البختري بن هشام" و"حكيم بن حزام" و"نوفل بن خويلد" و"الحارث بن عامر بن نوفل" و"طعيمة – طعمة – بن عدي بن نوفل" و"النضر

بن الحارث"، و"زمعة بن الأسود" و"أبو جهل بن هشام"، و"أمية بن خلف" و"نبيه ومنبه ابنا الحجاج" ، و"سهيل بن عمرو" ، و"عمرو بن عبدون" فأقبل الرسول على الناس فقال: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها".

ثم أخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – يبحث عن أفضل الأماكن ليترلوا فيه، فاهتدى إلى مكان ليس فيه ماء، فوجد "الحباب بن المنذر" أن هذا المكان غير مناسب –حربيًا – وقال للرسول : أهذا المترل أنزلكه الله لا نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " بل هو الرأي والحرب والمكيدة". فأشار الحباب بمكان فيه بئر ماء عذب كثير لا ينضب، هو بئر بدر، وأشار بإقامة حوض عليه ليشرب منه الجند والماشية، كما أشار بطمس معالم الآبار الأخرى؛ ليمنع مدد الماء عن قريش، فيكون ذلك من أسلحة المعركة البتارة.

وتأخذ بشائر النصر في التتابع والحلول؛ إذ تمطر السماء بالمكان الذي يترل به المسلمون، فتتلبد الأرض تحت أقدامهم وأقدام رواحلهم، ويقوى الإيمان في قلوبهم بنصر الله وتأييده لهم، بينما يشتد المطر على الكفار بحيث لم يستطيعوا مبارحة المكان.

ويغشى النعاس المؤمنين فتستريح أبدانهم، وتصفوا أذهانهم وتتوقد، بينما الكفار يقضون ليلهم مسهدين مذعورين من شدة المطر.

وكان من بشائر النصر أن ألهم الله تعالى نبيه – عليه السلام – بالمكان الذي سيلقى صناديد الكفر فيه حتوفهم، وقد حدده وهو يمر بالمكان الذي ستدور فيه رحى الحرب ويقول: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وبالفعل قتل من سماهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الأماكن التي أشار إليها، وما عدا واحد منهم مضجعه الذي حدده الرسول – عليه الصلاة والسلام – .

وبشارة أخرى من هذا القبيل: عندما أقبل نفر من قريش ووردوا حوض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيهم حكيم بن حزام" فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : دعوهم فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، كأن الماء كأس الموت، إلا أن "حكيم بن حزام" لم يقتل؛ لأن الله تعالى قدر له أن يسلم ويحسن إسلامه، فكان يتخذ من نجاته قسمًا غليظًا يقسم به عندما يجد به الأمر فيقول: "لا والذي نجاني من يوم بدر".

ويأتي الوحي بالبشارة القاطعة الفاصلة حينما خفق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خفقة وهو في العريش، أفاق بعدها ليقول لأبي بكر : "**أبشر**

يا أبا بكر؛ أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذًا بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع" ثم خرج الرسول وهو يثب في الدروع، ويقول: "**سيهزم الجمع ويولون الدبر**" فارتفعت روح المسلمين المعنوية، وأيقنوا أن النصر قادم لا محالة، ثم يعود إلى تشجيع الجند فيقول: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فصار كل واحد منهم على شوق للحرب والاستشهاد على غرار" عمير بن الحمام الذي اندفع إلى أتون المعركة عندما سمع البشير بالجنة، فقذف بتمرات كانت في يده وقال: بخ بخ – حسن حسن – أفليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ واستل سيفه، وظل يقاتل حتى قتل.

ثم يأتي دور التخطيط القيادي الملهم؛ إذ نظم الرسول – عليه الصلاة والسلام – الصفوف، وطلب إلى المسلمين ألا يبدءوا بالهجوم حتى يأمرهم، وأمرهم باستخدام النبال إذا هجم الأعداء عليهم على سبيل استتراف قوة الأعداء وامتصاص حماستهم، وبعد أن اطمأن على جنوده عاد إلى عريشه يناجي ربه سائلاً نصره، طالبًا هلاك هذه الفئة الباغية التي تصد عن دين الله، وظل يناجيه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فرده عليه أبو بكر، وطلب إليه أن يكف عن مناشدته ربه؛ لأنه سينجز له وعده.

ويأتي دور المناوشات التي تسبق المعركة فنرى سهمًا يصيب "مهجع" مولى "عمر بن الخطاب" فيكون أول شهيد من المسلمين، ويتبعه "حارثة بن سراقة" الذي رمي بسهم وهو يشرب من الحوض.

وتدخل المناوشات دور التحدي؛ إذ يقسم "الأسود بن عبد الأسد المخزومي" ليشربن من حوض المسلمين – بدر – أو ليهدمنه، أو ليقتلن دونه، فانبرى له "حمزة" وضربه بالسيف فقطع رجله، ولكنه أصر على الوصول إلى الحوض ، فتبعه "حمزة" وأجهز عليه.

وتتصاعد حدة المناوشات عندما خرج "عتبة بن ربيعة" وأخوه "شيبة" و"الوليد بن عتبة" يطلبون مبارزة المهاجرين دون الأنصار، وبرز لهم من المهاجرين "حمزة"، و"علي" و"عبيدة بن الحارث" وكان أكبرهم سنًا، أما "حمزة" فقد قتل "شيبة" وأما "علي" فقد قتل "الوليد"، أما "عبيدة" و"عتبة" فقد تبادلا الضرب حتى أثقل كل منهما الآخر، فتدخل "حمزة" و"علي" فأجهزا عليه.

وتبدأ المعركة في تخطيط محكم من جانب المسلمين؛ إذ كان للجيش مقدمة، ومؤخرة، وأجناب تحمي الجيش عن اليمين وعن الشمال، وقد استدبروا الجيش عند الهجوم، وأخذوا ينفذون تعليمات الرسول – عليه السلام

– بدقة فيمطرون الأعداء بالنبال إذا هجموا، ويفرون ليهجموا من مكان آخر، حتى أنهكوا قوى العدو فباء بالهزيمة والخسران المبين. وقد أسهمت الملائكة في المعركة إسهامًا عظيمًا لمسه المسلمون حسيًّا؛ إذ كانوا يرون الكافر تسقط رأسه، أو يطرح أرضًا دون أن يمسه بشر بسيف أو سهم أو رمح أو نبل. وعلى هامش المعركة نرى الحماسة وبصيرة اليقين النافذة تزلزلان قلوب البعض من المسلمين، كما نلمح الجانب الإيماني والجانب الإنساني كذلك.

فمن الحماسة وبصيرة اليقين ما نلمسه من وجه "سعد بن معاذ" وهو يقوم في نفر من الأنصار بحراسة عريش رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد تغير وجهه عندما توقف المقاتلون عن القتال، واكتفوا بأسر المهزومين من الكفار؛ إذ كان من رأيه القتل لا الأسر، وقد صرح الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلاً: "والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم" قال: "أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال" .

وهو ما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى: **"ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله**

عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم"[1].

وكان قول الله تعالى عتابًا لنبيه – صلى الله عليه وسلم – .

هذا ...

وقد اختلف رأي المسلمين في الأسرى حين شرع الرسول يأخذ رأيهم فيهم، فكان قول "أبي بكر" : "هم قومك وأهلك، فاستبقهم وتريث ولا تعجل؛ لعل الله أن يتوب عليهم" . وقال عمر : "يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك فقُدْ منهم واضرب أعناقهم". وقال "عبد الله بن رواحة": "يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم اضرمه عليهم نارًا" فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يُجِبْ، وانصرف إلى بيته والناس يختلفون فيما سيأخذ به الرسول من رأي، ثم خرج عليهم فقال: "إن الله – عز وجل – لَيُلين قلوب رجال فيه فتكون ألْين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ؛ إذ قال: "**فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**"[2]. ومثلك مثل عيسى ؛ إذ

---

[1] سورة الأنفال. الآيتان رقم (67 ، 68).

[2] سورة إبراهيم. الآية (36).

قال: "**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**"[3] ومثلك يا عمر مثل نوح؛ إذ قال: "**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا**"[1] . ومثلك مثل موسى؛ إذ قال: "**ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**"[2]. ثم ارتضى الرسول – صلى الله عليه وسلم – الفداء.

أما الجانب الإيماني فنلمحه في قوة العقيدة التي ملأت قلب "ابي حذيفة ابن عتبة" وهو ينظر إلى أبيه صريعًا والحزن يغشى وجهه حتى غيّره، فيسأله الرسول – عليه السلام- : " يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟" فقال "أبو حذيفة": لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي، ولا في مصرعه، ولكني أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلاً، فكنت أتمنى أن يهديه ذلك إلى الإسلام.

---

[3] سورة المائدة. الآية (118).

[1] سورة نوح. الآيتان (26 ، 27).

[2] سورة يونس. الآية (88).

هذا الجانب الإيماني جعل "مصعب بن عمير" يوصي "أبا اليسر" الذي أسر أخاه "أبا عزيز" بأن يُغلي في ثمن فدائه؛ لأن أمه ثرية، فيقول "أبو عزيز" لأخيه "مصعب": يا أخي ، أهذه وصاتك بي؟ فقال "مصعب": إنه أخي دونك.

أما الجانب الإنساني الذي يحمل الوفاء والمودة فإنا نلمحه في نهي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن قتل "أبي البختري" ؛ لأنه كف القوم عن الرسول – عليه الصلاة والسلام – وهو بمكة، وكان لا يؤذيه و لم يبلغ الرسول عنه شيء يكرهه، وشارك في نقض الصحيفة التي قاطعت بها قريش ولفاؤها بني هاشم وبني المطلب، وإن كانت نهايتُهُ القتلَ؛ لأنه رفض أن يؤسر.

ومن الوفاء والْخُلُقِ النبيل، ما أوصى به الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو يوزع الأسارى على المسلمين قائلاً: استوصوا بالأسارى خيرًا"، وفعلاً عاملهم المسلمون بالحسنى، وآثروهم على أنفسهم، يشهد بذلك واحد منهم هو "أبو عزيز بن عمير" في قوله: "كنت في رهط من الأنصار – حين أقبلوا بي من بدر – فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها إلى أحدهم، فيردها عليّ ما يمسها.

ثم تنتهي وقائع غزوة بدر بإلقاء قتلى المشركين في القليب إلا "أبا جهل" قد انتفخ جسده في درعه، فأهالوا عليه التراب في مكانه.

أما شهداء المسلمين فقد دفنوا بين تكريم المسلمين لهم، وتمنى الذين سلموا من الاستشهاد أن لو كانوا معهم، ينعمون برضوان الله وجنته.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)﴾ .

المعنى:

يشير صدر هذه الآيات إلى حالة الاختلاف التي حدثت بين المسلمين بعد أن جمعوا الغنائم لمن تكون هذه الأنفال؟ فرد الله تعالى عليهم بسلب ملكيتهم لها؛ تأديبًا لهم، وترسيخًا لمبادئ الأخلاق التي اهتزت وعبر عنها "عبادة ابن الصامت" حينما ذكر السبب في نزول الآية الأولى حيث قال:

"فينا –أصحاب بدر – نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقسم الرسول الغنائم عن فُواق – سرعة – وبَواء – على السواء – " .

وحتى لا يكون مظهرهم مظهر المتكالب على الدنيا، ولئلا يستقر في نفوسهم أن القتال إنما كان لتحقيق هذه الغنائم ، بل ليستقر في نفوسهم أن القتال كان لإعلاء كلمة الله، وتثبيت دعائم الإسلام في نفوس المسلمين، وليعلم أعداء الإسلام أن المسلمين لم يقاتلوا لغرض دنيوي بحت، فيستوي في ذلك المسلم وغير المسلم، ولهذا طالبتهم الآية الكريمة بسرعة الفيئة إلى الله من خلال التحلي بتقواه وطاعة رسوله، والمبادرة بالقضاء على أسباب الفرقة والخلاف؛ لأن ذلك يعطيهم صفة الإيمان الصادق، وحتى يربطهم الله تعالى بفلك الإيمان الدوار وضح لهم – في هذا الموقف – الصفات السامية التي ينبغي أن يحتكموا إليها ليتعلموا منها إلى أي مدى حققوا من درجات الإيمان، فكان من تلك

الصفات أن الله تعالى إذا ذكر اسمه اضطربت قلوبهم خوفًا من سطوته، وفرحًا برحمته، واطمئنانًا لعدالته مما تطمئن معه القلوب، فتطيب بذكر الله على غرار قوله تعالى : **"الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله"**[(1)] وأن آيات الله عندما تلتقطها أسماعهم يزداد الإيمان في قلوبهم دلالة على خصوبة تلك القلوب واستعدادها النقي للطاعة الخالصة، وأنهم يتوكلون على الله لا على أي مخلوق في الأرض أو السماء مع ضرورة أخذهم بالأسباب دون الاعتماد في قدرتها على تحقيق أية نتائج، ثم يتركون ما بعد ذلك للمقادير ، حينئذ يكون التصور سليمًا للأسباب حيث لا تطغى على الاعتقاد فتصيرها هدفًا وغاية يتعلق بها قلب المؤمن، إنما هي مجرد وسيلة خالية من كل عوامل القدرة الذاتية، وفي الوقت نفسه يديم هؤلاء إقامة الصلاة في أوقاتها وفي أحب أماكنها إلى الله ورسوله، وعلى الوجه الذي يشعر بالتقوى والورع والخشوع والتضرع والتذلل للمعبود الواحد، كما أنهم يبذلون في سبيل الله مما رزقهم تعالى إياه، دون منّ أو أذى أو بخل أو تقتير.

---

(1) سورة الزمر. الآية (23).

هؤلاء الذين اتصفوا بتلك الصفات هم الذين اهتدوا إلى حقيقة الإيمان الصادق الكامل بأن استوى الإيمان لديهم ظاهرًا وباطنًا، فكان كما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – :

"ليس الإيمان بالتمني ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل".

فعمرت به قلوبهم، وطهرت به نفوسُهم، واستنارت أرواحهم فاستحقوا الدرجات العُلى من الجنة، والمغفرة منه سبحانه وتعالى، والرزق الطيب الذي لا تحده حدود ولا تقدره أحجام.

أما الخلاف الذي حدث وحسمه القرآن الكريم في الآية الأولى فقد اتفقت عليه كل الروايات، ثم تشعبت هذه الروايات في سردها له، وكان منشأ الخلاف أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أراد أن يرفع من درجة الحماسة للقتال في نفوس المسلمين فقال – مما قال - : من فعل كذا فله كذا . فتسابق الشباب إلى المعمعة، وبقي الشيوخ تحت الرايات ردءًا وسندًا لظهور الشبان، وقام " سعد بن معاذ" وفريق معه على حراسة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في عريشه الذي بناه له ، فلما وضعت الحرب أوزارها جاء المقاتلون بالغنائم، وأراد كل منهم أن يستأثر لنفسه بما جاء به من الغنائم، حينئذ وجد الشيوخ وحراس الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنهم لن يصيبهم شيء من

هذه الأنفال، وبدا ضعف النفوس، أو ظهر ما يشير إلى ضعف فيها دون أن يكون هناك ما يؤكده؛ إذ قال الشبان: لنا النفل، نحن الذين طلبنا العدو، وبنا هزمهم الله، ونحن حويناه – النفل – واستولينا عليه. وقال الشيوخ الذين مكثوا تحت الرايات للشبان: كنا لكم سندًا وردءًا، وقال "سعد بن معاذ" – قائد حرس العريش - : يا رسول الله، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من خلفك.

توقف الرسول عن إبداء رأيه حتى يترل الوحي في ذلك.

هذا الخلاف اتخذ شكلاً شخصيًا من قبل بعض الصحابة؛ حيث قُتل " عمير بن أبي وقاص " وانتقم له أخوه "سعد" بقتل "سعيد بن العاص" قاتل "عمير"، وأخذ سيفه، وأتى به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له الرسول: "اذهب فاطرحه في القبض – مكان جمع الغنائم - ؛ لأن النبي لم يكن قد أوحي إليه بطريقة توزيع الأنفال – وكان "سعد" يريد هذا السيف لنفسه – فلما نزلت سورة الأنفال قال الرسول – عليه السلم – له: "اذهب فخذ سيفك". وقد حدث شيء قريب من هذا الفعل من بعض الصحابة.

التعليق:

قد تبدو الحيرة أمام اختلاف الصحابة حول الغنائم، خاصة أنهم يعدون الصفوة من الأمة الإسلامية؛ إذ هم بين مهاجر باع آخرته بدنياه، وضحى بما لم يكن يتخيله عقل، وبين أنصاري بلغ الذروة في الإيثار إلى درجة بهرت الناس؛ لأنها كانت على غير مثال سابق، وهذه الخلافات التي كانت على أمور مادية تأباها روحانية الدين أعطت الأعداء فرصة ذهبية للتشكيك في إيمان المسلمين الراسخ، وتصويرهم متهافتين على المادة بعد أن اجتثت من قلوبهم جذور الإيمان العميق، ولو تأملنا مليّا وسيلة تحميس الرسول للمقاتلين وأن من فعل كذا فله كذا لانهارت هذه الشكوك وتلك التصورات الخاطئة، خاصة إذا علمنا أن من باشروا القتال كانوا يسعون لتقديم الدليل العملي على بلائهم في الحرب، وأن الذين لم يباشروا الحرب أسهموا بوسيلة غير منظورة لتحقيق هذا الدليل بوقوف الشيوخ تحت الرايات ردءًا للشبان، وحراسة بعضهم للرسول – صلى الله عليه وسلم – في عريشه، ولذلك عندما نزل الوحي بالتقسيم والتوجيه صفت

النفوس وخلت من كل شائبة، وتابوا وأنابوا ولاموا أنفسهم على ما فعلوا، واعترفوا بسوء أخلاقهم إزاء ذلك.

هذه الفكرة على وجاهتها لا نسلم بها على إطلاقها، فقد حدث ما يضعف التسليم بها، وهو ما بدر من الرماة يوم أحد؛ حيث أخذهم بريق الغنائم فنزلوا من فوق الجبل إلى سفحه يجمعونها ويتسابقون في جمعها، مخالفين بذلك تشديد الرسول عليهم بألا يتركوا أماكنهم بالجبل حتى يكونوا ردءًا للمقاتلين، وحماة لظهورهم، ولذلك عاقبهم الله عقابًا موجعًا بأن جعل الدائرة تدور عليهم جميعًا – رماة وغير رماة – حيث انكشفت ظهورهم، وتنبه خالد بن الوليد لذلك – وكان يومئذ على الكفر – فأخذ المسلمين من مأمنهم، وطعنهم في ظهورهم، فكان في ذلك الدرس الذي لا ينساه المقاتلون يومذاك وما بعد ذلك.

وهنا تأخذنا الصور المتلاحقة في تلك الآيات الكريمة لنرى موقف الله – تبارك وتعالى – من هذا الاختلاف الذي أغضبه وحير نبيه، ثم نرى أيضًا تلك الصور التي وضع الله تعالى إطارها ليتحدد المؤمنون بهذا الإطار العظيم؛ إذ من أول كلمة نلمح صورة الإلحاح من الصحابة ليمنح الرسول – عليه السلام – كل مقاتل ما غنمه، ويعرض هذه الصورة في هيئة الفعل المضارع رمزًا إلى تكرارها وحدوثها أكثر من مرة، كما تصور عامة المسلمين – المقاتلين – وقد

انزلقوا إلى هذا الخطأ حينما تلحق واو الجمع الفعل المضارع، فكأن الكل كان يسأل، والحقيقة أن مثل " أبي بكر " لا يسأل، ولكن الكثرة الغالبة هم الذين كانوا كذلك، فكأن السؤال كان من الجميع لا من المجموع، وهذا يجعلنا نتخيل صورة تولدت عن الحالة الجمعية هذه ، تلك الصورة هي صورة غضب الله تعالى من هذا التصرف، استنكارًا له، واستهجانًا، بدليل أنه تعالى لم يقل – مثلاً "يسألك أصحابك، أو أتباعك أو أنصارك، أو المسلمون، أو المؤمنون" تجاهلاً لهم وتحقيرًا لعملهم، ولا شك أن هذه الصورة كان لها بُعد زمني؛ لأن السؤال تكرر ومن عديدين، فاستغرقت هذه الصور زمنًا ما كان الله تعالى ليرضى عنها بعد أن استقرت في ضمير التاريخ، ولو كانت عارضة ومن عدد قليل لتجاوز الله تعالى عنها، وما غضب عليهم كل ذلك الغضب في تلك الصورة التي تخيلناها.

وامتدادًا لصورة الغضب فإنا نرى كلمة "الأنفال" تتكرر بلفظها في قوله تعالى: "قل الأنفال" وكان السياق يقتضي (قل هي) ، فوضع الظاهر موضع المضمر، وقد شاءت إرادة الله تعالى ذلك لحكمة هي أنه أراد أن يكرر مصدر الغضب تبكيتًا لمن اقترف هذا الخطأ، وتحذيرًا وتنفيرًا من أن يقعوا هم أو غيرهم في ذلك فيما بعد، وهذه تربية إيمانية هادفة وإن كانت مستورة، وفي أسلوب

حاد بعض الشيء، إلا أن الله تعالى أعلن عن هذه التربية فيما بعد في قوله تعالى: "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم" في أسلوب هادئ النبرة. ولنا أن نعتبر قوله تعالى: "فاتقوا الله" مرتبطًا بما سبق في الآية الكريمة، ويكون المعنى: هو طلب التخلي عن التعلق بالأمور المادية الدنيوية، وأن هذا التخلي مظهر من مظاهر التقوى، وإما أن نعتبر هذا الأمر – فاتقوا الله – مرتبطًا بما بعده على أساس أن صفاء النفوس، وطهارة القلوب لا يتحققان إلا بتقوى الله، والخشية منه، وطاعته وطاعة رسوله.

ولكن هل الطاعة هنا عامة أم طاعة خاصة؟.

أعتقد أنها طاعة خاصة إذا ما توفرت دخلت نطاق الطاعة العامة باعتبارها جزئية من جزئيات الطاعة العامة، وأقصد بالطاعة الخاصة هي طاعة الله تعالى فيما أنزل بشأن توزيع الغنائم، وطاعة رسوله وهو ينفذ حكم الله في التوزيع.

وتختم الآية بعنصر تحميسي يبدو من قوله تعالى: "إن كنتم مؤمنين" وهو تعالى يعرف أنهم مؤمنون وهم كذلك يعرفون أنهم مؤمنون حقًا، وإن بدرت منهم هذه البادرة العارضة في حياتهم الإيمانية فقد أخرجهم من دائرة الإيمان

مؤقتًا كنوع من العقاب النفسي السريع؛ لأنه – تعالى – أراد أن يردهم إلى الإيمان والطاعة ردًا قويًا بهما يسيطرون على نفوسهم الأمّارة بالسوء.

ثم يأخذ الله تعالى المؤمنين في حُنُوّ بالغ بأن وضح لهم مرة أخرى الصورة الكلية المثلى لمن أراد أن يكون مؤمنًا إيمانًا لا يتزعزع، ويقينًا لا يلين أو يضعف – وهذه هي رحمة الله بعباده في أرفع معانيها – هذه الصورة كان أطارها التوكيد الذي ينفي الشك والتردد، ثم يأخذ سبحانه في إضاءة جوانب الصور الجزئية التي تشكلت منها الصورة الكلية، فنرى الصورة الجزئية الأولى ماثلة في حال المؤمنين حينما يذكر اسم الله على مسمع منهم، حينئذ تصاب قلوبهم بالخوف والرجاء: بالخوف من عقابه، والرجاء في ثوابه، وهذه صورة غائبة عن الحس يمكن التماسها بمظاهرها وهي الورع والتقوى والخشوع والتذلل، والسلوك الذي يستلزمه الخوف والرجاء. والصورة الجزئية الثانية نلمحها في ازدياد الإيمان وتضاعفه في قلوب المؤمنين عندما تتلى عليهم آيات الله سبحانه وتعالى. والصورة الجزئية الثالثة تبدو في التوكل على الله ونبذ الشريك الذي يتوهم نفعه. والصورتان الثانية والثالثة غائبتان عن الحس أيضًا. أما الصورة الجزئية الرابعة فهي صورة حسية عملية أيضًا، وهم يجودون بأموالهم التي رزقهم الله تعالى إياها.

والناظر في هذه الصور يرى فيها عجبًا من الأسرار يبدو في ترتيبها؛ حيث ذكرت الصورة الأولى لتكون بمثابة الأساس المتين؛ لأن القلوب هي محرك الأشخاص إلى الخير أو الشر، فلابد أن تتوجه أولاً التوجيه الرشيد، حينئذ يكون الإيمان قابلاً للازدياد والتضاعف، ولن يبلغ الإيمان ذروته إلا إذا كان قائمًا في بعض أسسه على التوكل على الله – تبارك وتعالى - ؛ حيث ينزع من القلوب ما يوهم تحقيق النفع من دون الله، حينئذ يتكامل الجانب النظري بصوره الغائبة، والذي يدفع الحواس إلى تحقيق الصورتين الحسيتين الماثلتين في الصلاة فتؤديها وهي خاشعة، والإنفاق فتأتيها وهي راغبة.

هذا وإنا لنرى الفعل قد وظف خلال تلك الصور الخمس توظيفًا بديعًا، فنراه مع الصورة الأولى والثانية يكون على هيئة الماضي؛ لأن الخوف من الله مطلوب فيه أن يصل إلى منتهاه دون أن يعود مؤشره إلى الوراء؛ إذ لو كان الفعل مضارعًا لسمح للإيمان أن يضعف ويعود إلى قوته، كما يسمح بتكرار ذلك ليتساوق ذلك التكرار مع طبيعة الفعل المضارع الذي يوحي بالتجدد، ولا يتجدد الشيء إلا إذا أصابه ضعف، والأمر كذلك في الصورة الثانية؛ لأن المطلوب من الإيمان أن يصل إلى ذروته دون انتكاس على النحو الذي ذكرته في الصورة الأولى.

أما التوكل في الصورة الثالثة فلأنه يرتبط بالأعمال التي تعرض للإنسان من حين لآخر فإن التعبير بالفعل المضارع (يتوكلون) لهو أنسب وأبلغ؛ لأن العمل يتجدد معه التوكل.

والأمر كذلك بالنسبة للصورة الرابعة — الصلاة —، والخامسة الإنفاق- لأنـــهما يتكرران، وأن هذا التكرار مطلوب، فناسبهما الفعل المضارع (يقيمون) ليجعلهما في أزهى صور الإسلام، فكأن المؤمنين في صلاة دائمة، لا يراهم راء إلا وهم قائمون عليها، وكذلك حالهم في الإنفاق.

وإذا نظرنا إلى البعد الزمني في هذه الصور، فمن الممكن أن نتخيله في الصورتين الأوليين — الخوف وازدياد الإيمان — سريعًا لم يستغرق زمنًا طويلاً؛ لأن القلوب ليست خالية منهما تمامًا، أما في بقية الصور فإن الزمن يمتد خلالها؛ لأن التوكل ليس في موقف واحد، أو عمل واحد، أو زمن واحد، وكذلك الصلاة ليست في زمن ينقضي ثم لا يطالب بها المسلمون ثانية، كذلك الإنفاق ليس محددًا بفترة زمنية معينة. ثم نرقى إلى جمال النسق القرآني العظيم، فنرى أنفسنا نقف أمام قوله تعالى: **"أولئك هم المؤمنون حقًا"** فنراه تعالى يشير إلى المؤمنين بما يوحي بجلال مترلتهم عند الله تعالى، فيستخدم لفظ "أولئك" ويردفه بضمير الفصل ليشعرنا بأن الإيمان الحق الخالص الكامل إنما يتحقق لمن اتصفوا

بالصفات السابقة لا يدخل معهم في دائرتهم سواهم، ومن هنا كان الجزاء عظيمًا لأن المقاتلين — وهذه صفاتهم — لا يرجون إلا الشهادة، فاستحقوا الدرجات العلى من الجنة، وأنهم بعد تخلقهم بأخلاق الإسلام كان غفران الذنوب ثوابهم، ومن كان قليل الرزق في الدنيا فله رزق كريم يوم القيامة.

هذا الإيمان الخالص الكامل يرقى بصاحبه أحيانًا إلى مقام المشاهدة لمغيبات الله تعالى، وتنقل العبد من عالم الحس إلى عالم الروح، فتجعله يدور في فلك العبادة التي ترقى به إلى مشاهدة ما لا يراه غيره ممن قلت درجات إيمانهم وهبطت عن درجات القمة، ذلك أنه يرى بنور الله، وهذا ما يفسر الحوار الذي دار بين الرسول — صلى الله عليه وسلم — وبين "الحارث بن مالك الأنصاري" عندما مر به الرسول — عليه الصلاة والسلام — وقال له : "كيف أصبحت يا حارث"؟ قال: "أصبحت مؤمنًا حقًا" قال — عليه السلام – : "انظر ما تقول؛ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك"؟ قال: " عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها". فقال — عليه السلام– : " يا حارث: عرفت فالزم". كررها ثلاثًا.

كذلك نرى من روعة النسق البياني أن الله تعالى أسند الدرجات إلى معيَّته وعنديَّته تفخيمًا وتعظيمًا لهذه الدرجات، وأنها لن تكون في الجنة الحسية فقط، بل ستكون عند الله أعظم وأفضل، بالإضافة إلى أنها — الدرجات — وردت نكرة، هي والمغفرة والأجر؛ لتذهب النفس في تقدير ذلك كل مذهب؛ لأن تعريفها سيقلل حجمها مهما كانت فخمة.

ثم نرى "الرزق" يرد نكرة ويوصف بأنه كريم، كأن الله تعالى أراد أن يريح نفوسهم التي تعلقت يومًا بالمادة، وأن ما سيُرزقونه في الجنة خير وأبقى وأعظم مما تعلقت به قلوبهم في الدنيا، وتكدرت نفوسهم بالتنافس عليه.

كما أن النسق القرآني لفت الأنظار إلى حقيقة إيمانية صادقة هي كون الأرزاق من الله تعالى، ولا سبيل لقدرة البشر على تحقيقها أو منعها، فلا ينبغي أن نختال على الناس بما نساعدهم به من مال؛ لأنه ليس من خلقنا، وليس لنا منه إلا اكتسابه بطريق الأسباب، أما وجوده من العدم فهذا من قدرته سبحانه وتعالى وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ(8) ﴾.

المعنى:

إن كراهية بعض المؤمنين للتسوية في تقسيم الغنائم، ورفض كل فريق لوجهة نظر الفريق الآخر في هذا التقسيم مما أدى إلى التشاحن والمجادلة، هذه الكراهية تشبه كراهية بعض المسلمين للقاء العدو والدخول معه في حرب لم يكونوا قد استعدوا لها، ولا طاقة لهم بقتاله مع أن الله قد أخرج نبيه من المدينة بالحق، ولإظهار الحق لا للعدوان، أو التباهي بقوة أو غنى، هذه الكراهية تذكرنا باستشارة الرسول لأصحابه حينما علموا أن العير أفلتت منهم – بعد أن ساروا لاعتراضها يومًا أو يومين – هل يقاتلون أم يرجعون، وتكلم "أبو بكر" و"عمر" بما أراح صدر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومثل ذلك فعل "المقداد بن عمرو" و"سعد بن معاذ" إلا أن العبض اعترض على محاربة الأعداء اعتراضًا صريحًا ؛ لأنهم خرجوا للعير لا للنفير، وكان اعتراضهم على

قول الرسول – عليه السلام – : "ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم" حينئذ ابتدأ "المقداد" بحسم الموقف ، وأنهاه "سعد بن معاذ".

هؤلاء المؤمنون لجَّ بعضهم في مجادلة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أن تبين لهم أن لا مفر من القتال؛ لأنه الوسيلة التي ستُحق الحق وتظهره من خفاء، وتزهق الباطل وتجعله إلى خفاء، وأن كراهيتهم للقتال بلغت درجة كبيرة؛ لأنهم أيقنوا بالموت كأنهم يشاهدونه بأعينهم، وغاب عنهم – لفترة – وعدُ الله للمؤمنين بالنصر المؤزر على إحدى الطائفتين : الطائفة القليلة العدد، وتتمثل في حُرّاس القافلة التجارية التي خرجوا لملاقاتها واعتراضها، والتي كانوا يتمونها لسهولة الاستيلاء عليها دون جهد منهم أو معاناة، أو الطائفة الكبيرة العَدد والعُدد، وهي جيش قريش ومن حالَفها، والتي رفض بعضهم فكرة لقائها؛ خوفًا على أنفسهم من الموت المحدق المؤكد – في نظرهم – ؛ لأنها ذات قوة ومنعة مما يجهدهم ويستنزف قوتهم إن هم واجهوها، ثم يبين الله تعالى لهم أنه اختار لهم قتال الطائفة الكبيرة ليتقرر الحق الذي كان غائبًا عن طريق وعده تعالى بالنصر المبين، والقضاء على الأعداء وتحطيم شوكتهم واستئصالهم، حينئذ تكون الأمور قد وضعت في نصابها بإظهار الحق وإبطال الباطل رغم أنف

المجرمين الكفار، الذين أجرموا في حق الله تعالى بإنكار دينه ومحاولة القضاء عليه، كما أجرموا في حق أنفسهم؛ لأنهم عرضوها للعذاب الأليم المهين.

التعليق:

يعود الله سبحانه وتعالى إلى تذكير المؤمنين بخطئهم في نظرهم إلى الغنائم نظرة خالبة لقلوبهم، فكرهوا العدالة في تقسيم الغنائم، وهي العدالة التي أقرها السماء، ومن هنا نراه تعالى يقرن صورة هذه الكراهية بصورة أخرى هي كراهيتهم لقتال العدو كراهية شديدة، ذلك القتال الذي من أجله أخرج الله نبيه من بيته بالمدينة، قرن الصورتين لتنفيرهم مما يحكِّمون فيه عقولهم دون روية أو تدبر.

هاتان الصورتان تمثلان امتدادًا واحدًا لِما يكرهه الله تعالى من عباده المتقين، وقد صنعتا تمهيدًا رائعًا لإنعام الله على المؤمنين بتحقيق النصر لهم على إحدى الطائفتين، كأنه يريد أن يقول لهم: إن رحمتي وسعت كل شيء، ولن يمنعني خطؤكم من الإحسان إليكم؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم حقيقة ما في قلوبهم، وأن ما فيها من إيمان لا تمحوه تلك الأخطاء العابرة.

وهنا تبدو الرحمة في أسمى معانيها، وأجلى صورها؛ إذ لم يعاقب الله المسلمين على تلك الأخطاء، بل أظهر لهم عدم الرضى عما صنعوا، وقدَّر فيهم ضعفهم البشري الذي فطر عليه الإنسان، فلم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ لأنه تعالى رأى فيهم العون الصادق للإسلام والدرع الواقية له، فمنّ عليهم بالنصر كفاء ما تضمه قلوبهم من تقوى ورغبة في العمل الصالح، وفي الوقت نفسه أراد أن يوقظ حواسهم ومشاعرهم إلى عظمة ما يريده لهم من تمكين لدينهم في الأرض، وهو أفضل عند الله والعقلاء من كنوز الدنيا، ومن هنا يبدو الفرق واضحًا بين ما يريده الله تعالى، وما يريده العباد، وتفاهة ما يبتغون وعظمة ما يراد لهم.

وقد شاء الله تعالى أن تفلت العير لتكون الحرب هذه فيصلاً بين الحق والباطل؛ وليعرف العدو أن الإسلام تمكن من قلوب أبنائه، فجعل الرجل منهم يقاتل عشرة من الكفار – ويغلبهم وينتصر عليهم، وبذلك تتحدد القدرة العسكرية لدولة الإسلام الناشئة، ويعلم الجميع – مسلمين وغير مسلمين – أن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد، وإنما هو بتأييد الله وإرادته، وأن النصر من عند الله لا بإمكانات البشر المحدودة، فهم سُبله وأسبابه، ولذلك يقول الله تعالى في

هذه السورة: "**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**".

كما أن الآية الثانية تجعلنا أمام صورة حسية أخرى هي صورة المؤمنين وهم يجادلون الرسول – عليه السلام – ويلحفون في الجدل، وكان الفعل المضارع في صدرها أدق تعبير عن الحال الذي بدا منهم مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ؛ لأن الجدال تكرر، وتجدد ، وامتد زمنًا عندما كان الرسول – عليه السلام – يقول لهم: "**ما ترون في قتال القوم**" ؟ ولذلك كان تصويرهم بليغًا كشف ما في أعماقهم من فزع وهلع لهذا القتال، فصورهم وهم يرفضون بمن يساق إلى الموت وهو متيقن منه، هذا الجدل يعكس الصراع المرير الذي اعتمل في نفوسهم ، وسيطر عليهم فترة من الزمن.

وتبلغ الروعة مداها داخل هذه الصورة والتعبير القرآني يقول: (يساقون)، وهو أبلغ ما يكشف حتمية الموت من وجهة نظر المعارضين للقتال، ذلك أنهم لا يسحبون إلى الموت أو يجرون إليه، ولو كان الأمر كذلك لكانت هناك ثغرة – متخيلة – للفرار من الموت بأن يفلتوا من الساحبين أو الجارّين، أما إذا كان الموت يساق إليه فلا مهرب منه حينئذ؛ لأنهم إذا حاولوا الفرار ردهم إليه من يسوقونهم نحوه.

كما أن الآية الثالثة تقودنا إلى صورتين متقابلتين: صورة ما أراده المؤمنون لأنفسهم من غنيمة سهلة، واشتباكات لا تبلغ مبلغ الحرب والالتحام، وصورة ما أراده الله لدينه من التمكين في الأرض، واقتران الصورتين المتناقضتين هنا له خطره وجلاله؛ لأنه أوضح البون الشاسع بين ما يراد هنا وبين ما يراد هناك، كما أوضح حقارة ما أراده المؤمنون إذا ما قيس بما أراده الله لهم.

كما أن وضع صورة الحق في مواجهة صورة الباطل في الآية الرابعة يجعلنا نشعر بجسامة المسئولية ، وفي الوقت نفسه تحمل المؤمنين بالدين عبء النضال والكفاح، حتى يتحقق الأمران معًا: إعلاء الحق وإخفاق الباطل.

ومن طريف اقتران الصورتين اختفاء إحداهما متى ظهرت الأخرى، فظهور صورة الحق تستدعي اختفاء صورة الباطل.

ولا شك أن الصورتين امتدتا في عمق الزمن فترة أطول من أية صورة أخرى في هذه الآيات.

وأود هنا أن أسجل ظاهرة جديرة بالاحتفاء، وهي: تكرار كلمة (الحق) في كل آية من الآيات الأربع، رمزًا إلى كل ما يحدث من إخراج وإصرار على القتال في مواجهة الجدال فيه، وإرادة الله لإحقاق الحق، إنما هو من قبيل الجد الصارم الذي لا يعرف اللهو أو العبث.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا

اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (13)ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

المعنى:

عندما صار كل فريق في مرأى عين عدوه ظهر حجم الأعداء كبيرًا، فخشي الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أصحابه من أن يصابوا بالفزع لكثرة العَدد والعُدد، أو يجبنوا، فتوجه إلى ربه ضارعًا مستغيثًا طالبًا نجدته ونصرته وتأييده، حيث استقبل القبلة، وهتف قائلاً:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض أبدًا"[1].

([1]) أخرجه مسلم (1763) كتاب الجهاد والسير – باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

واستمر على ذلك لبعض الوقت حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأعاده "أبو بكر" إلى مكانه قائلا: "يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فترل قوله تعالى: "إذ تستغيثون" الآية. وكان الرد السريع على تلك الاستغاثة أن الله – تبارك وتعالى – أمد المسلمين بألف من الملائكة تتابعوا في نزولهم ، وكان في نزول الملائكة بشرى للمؤمنين بالنصر؛ لأن اشتراكهم في المعركة رمز لرضى الله تعالى عن المقاتلين وإشعارهم بأحقيتهم في النصر، كما كان هذا الاشتراك سببًا في رفع الروح المعنوية لدى المقاتلين ؛ ليندفعوا إلى القتال بعزيمة وثَّابة، وشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وهذا ما حدث بالفعل.

وحتى يترع الله تعالى التعلق بالأسباب من القلوب، وأنها هي التي حققت النصر، أوضح – تبارك وتعالى – أن النصر من عنده؛ لأنه وحده العزيز المنيع الذي لا تغلبه قوة في الأرض أو في السماء، وهو كذلك حكيم فيما يفعل دون خلل أو إخلال في التدبير، ودون العبث والضلال فيه.

ثم يذكّر الله عباده المؤمنين بنعمة الله التي كانت تترى عليهم قبل المعركة، وأنه فعلها معهم لأسباب جوهرية لها مغزاها وجوهريتها، فقد بدل خوفهم أمنًا، بأن بعث الطمأنينة في قلوبهم، فاستطاعوا أن يناموا ليلة المعركة – لأن الخائف لا ينام – إذ الأمن منيم، والخوف مسهر – فكان في ذلك استرداد

لنشاطهم وحيويتهم، إلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه لم ينم – فيما ذكره عليٌّ – بل ظل تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.

وقبل أن يصلوا إلى بئر بدر، أنزل الله تعالى عليهم مطرًا منهمرًا فشربوا وشربت دوابهم، واغتسل من كان جنبًا، فازدادت القلوب يقينًا، وزالت عنها وسوسة الشيطان الذي همز لهؤلاء بأنهم يصلّون وهم على جنابة – حيث لم يشرع التيمم إلا في غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة – وكان من نعمة المطر أيضًا أن ثبتت به الأرض الرخوة، فاستطاعوا التنقل عليها بسهولة هم ودوابهم.

ثم توضح الآية الرابعة دور الملائكة في المعركة، وهو تثبيت المؤمنين بتحميسهم شفهيًا[1] على القتال أو الاشتراك معهم فيه، والظهور لهم حتى يظهر العدد كبيرًا يرفع روحهم المعنوية، ويعلمون أنهم مؤيدون من قبل الله تعالى.

---

[1] يروى أن المأمور بالضرب فوق الأعناق والبنان هم المؤمنون، وعليه يكون تثبيت المؤمنين شفهيًا فقط، ويضعف هذه الرواية أن قتلى الملائكة كانوا يعرفون بعلامات تشبه الاحتراق في المكان المضروب.

وكما ألقى الله الطمأنينة في قلوب المؤمنين ألقى – على عكسها – الرعب في قلوب المشركين، ثم يأمر ملائكته بالاشتراك الفعلي في المعركة، بأن يضربوا الأعناق أو ما فوقها وهي الرءوس، ويضربوا الأنامل حتى يعطلوا الأعداء عن القتال. هذا العقاب الذي أنزله الله بالكافرين، والذي انتهى بالهزيمة النكراء كان بسبب خروج الكفار على دين الله ودين رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعاندوا وأصروا واستكبروا استكبارًا، وهذا هو عقاب كل من يفعل ذلك في الدنيا، أما في الآخرة فإن عذاب النار الأشد سيكون في انتظارهم، ولن يفلتوا أو ينجوا منه.

التعليق:

في هذه الآيات كثافة تصويرية، معنوية وحسية، وحركية وغير حركية، وقد تكون بعض الصور حسية منظورة تمتزج بها صورة غير منظورة، ثم تتولد

عنهما صورة ثالثة، وهو ما بدأت به الآية الأولى؛ إذ نرى الصورة ببعديها المنظور وغير المنظور والرسول – صلى الله عليه وسلم – يستغيث بربه، في استغاثته الخاصة ومناجاته لربه، فالصورة الأولى حسية حركية، والرسول–صلى الله عليه وسلم – وصحابته يقفون مادين أيديهم إلى السماء، محاولين مد الأيدي فوق طولهما المعتاد، كأنهم يريدون ملامسة السماء، فهذه الصورة أحستها العين برؤيتها لها، والصورة غير المنظورة هي صورة الاستغاثة والمناجاة التي صدرت عن الرسول وصحابته، ورسمتها كلماتهم أثناء الضراعة، وصوّرتها هيئتهم أثناء الضراعة – وهنا نتذكر أيضًا صورة استغاثة الرسول الخاصة ومناجاته لربه، والتي استغرق فيها حتى سقط رداؤه عن منكبيه – وهاتان الصورتان تولدت عنهما صورة ثالثة تخيلنا خلالها إلى أي مدى من الفزع والخوف كان عليهما الرسول – عليه السلام – وصحابته.

كما أن الاستجابة السريعة التي دلت عليها الفاء ولدت معاني ثلاثة:

الأول: يكشف عن شفافية قلب الرسول وعمق الإيمان لديه، مما يكون سببًا في قبول الاستغاثة.

الثاني: ينم عن اليقين الثابت في أعماق الرسول بأن الله وحده الذي يملك تفريج الكروب.

الثالث: يظهر الله سبحانه وتعالى فيه قربه من عبده المؤمن؛ إذ هو أقرب إليه من حبل الوريد.

وعن تجسيد هذا الهول المرعب يعبر القرآن الكريم بلفظ "تستغيثون"؛ لأنه أبلغ في الدلالة على المراد من لفظ الدعاء أو التضرع أو التوسل؛ لأنه يرمز في قوة إلى الضعف الشديد الذي كان عليه المؤمنون والقوة القاهرة التي يكون عليها المستغاث به.

ولكنَّا أمام الفعل (تستغيثون) نسأل أنفسنا:

هل كانت الاستغاثة من الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن المؤمنين، أم من الرسول – عليه السلام – وحده، ولكنه كان ينطق بلسان حال المؤمنين؟.

الأقرب إلى طبائع الأشياء أن الاستغاثة صدرت من الرسول ومن المؤمنين؛ لأن المؤمنين كانوا في كرب عظيم، والرسول يخشى عليهم من الهلاك؛ إذ لو هلكوا لضاع دين الله فلا يعبد في الأرض؛ إذ هم حماته وحرّاسه، وقد كانت استغاثة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أعمق من غيره؛ لأنه يدرك مدى ما سيتحقق بانتصار المسلمين أو هزيمتهم ، ومن هنا رأينا الاستغاثة من الرسول – صلى الله عليه وسلم – تمتد زمنًا يقع فيه رداؤه عن منكبيه، ويأسى

"أبو بكر" لحاله فيواسيه بأن الله تعالى لن يخلف وعده له بالنصر، ويطلب الاكتفاء بما قدم من ضراعة واستغاثة.

هذه الصورة هي أفسح صورة مكانية يمكن أن يتخيلها المرء؛ إذ عبرت الأرض والسماء إلى العرش الذي اهتز لها، فكانت هذه الاستجابة السريعة التي سبقت البرق إلى الأرض، كما أن الاستجابة كانت سريعة لتكون كفاء لهذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل؛ إذ كان يومها يوم الفرقان وإعلان قيام وزارة الحرب — إن صح التعبير — في دولة الإسلام، ومن هنا نرى الملأ الأعلى يشارك فيها، بدءاً برب العزة جل وعلا، وانتهاء بالملائكة التي تقدَّمها جبريل — عليه السلام — وكان بالإمكان أن يتم النصر بآية من آيات الله غير القتال ، مثل الريح العاصف، أو الجراد ، أو القمل، أو الضفادع ، أو الدم، أو ما لا نعلمه ويعلمه سبحانه وتعالى، ولكن لقداسة هذه الحرب وخطورتها وأهميتها، تولى الملأ الأعلى إدارتها بدءاً ونهاية.

وفي إطار الصور الحركية نرى نزول الملائكة متتابعين، وكان لهذا التتابع مزية هي تجدد العزيمة والهمة؛ إذ كلما يعلم المسلمون أن مددًا جديدًا نزل من السماء — الثالثة — أحسوا بمعية الله تبارك وتعالى ، وتأكد لهم أنه لن يتخلى

عنهم لحظة حتى تنتهي المعركة وما بعد المعركة، ولهذا كان إنزال الملائكة إرهاصًا وبشرى بالنصر المؤزر لتطمئن به القلوب.

وحتى لا يكل الله تعالى مؤمنًا إلى نفسه فيعتقد أن النصر تحقق بالملائكة دون أن يكون لله دخل فيه أردف البشرى بمن سيتولى تحقيقها على الأُحادية والانفراد واليقين، وليتأكدوا من ذلك وصف الله تعالى نفسه بالقوة والمنعة في قوله : (عزيز) ، كما وصف نفسه بالتدبير المحكم في قوله : (حكيم)، وهما وصفان لا يصح في هذا المجال غيرهما؛ إذ هما أنسب ما يكون لهذا المقام.

وفي مجال عمل الملائكة الحسي في المعركة أقول:

هل ظهرت الملائكة حسيًا في المعركة؟. وهل هناك آثار تدل على قتالهم؟.

أما ظهور الملائكة حسيًا فيؤيده ما ثبت عن "سعد بن أبي وقاص" أنه قال: رأيت عن يمين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعن يساره يوم بدر رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عليه أشد قتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، هذا في الجانب المسلم، أما في الجانب المشرك فيؤيده قول "أبي جهل" لابن مسعود: "أأنت قتلتني؟ إنما قتلني الذي لم يصل سناني إلى سنبك فرسه وإن اجتهدت".

وإني لأرى الصورة الحسية هذه لم تنتشر، بدليل أن بعض الصحابة لم يرها، بل كان يرى أثرها، وهذا ما يشير إليه "سهل بن حنيف" في قوله: "لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه". ولذلك ذهب بعضهم إلى أن قتال الملائكة لم يكن إلا يوم بدر.

أما آثار قتالهم فنستدل عليها من قول "الربيع بن أنس" : "كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة — علامة — النار قد أحرق به.

ثم تنتقل الصور المتحركة إلى الصور الساكنة ونحن نتخيل صورة المؤمنين وقد غشيهم النعاس وتمطت أجسامهم يتقلبون ذات اليمين ثم يسكنون، وذات الشمال ثم يسكنون لندرك أن الذي خلق الأجسام وسواها عليم بما يصلح من شأنها، ومن صلاحها أن تخلد إلى الراحة زمنًا، فتتحول من التعب إلى الراحة، ومن القلق والفزع إلى الأمن والدعة والسكينة، وهذا ما يدركه الإنسان المجهد بدنيًا أو نفسيًا بعد أن يستيقظ من نومه عقب هاتين الحالتين مجتمعتين أو منفردتين.

وتقفز إلى الأذهان صورة حسية حركية ترتبت عليها صورة منظورة، وصور غير منظورة:

أما الصورة الحسية الحركية فتبدو في نزول المطر ؛ حيث ملأت مساحة من المكان وغطت مساحة من الزمان، هذه الصورة الحسية في ذاتها كانت مطلوب القوم؛ لأن العطش أجهدهم وأجهد دوابهم، وأن ما أصابهم من جنابة عكر عليهم صفو نفوسهم بما ألقى الشيطان فيها من وسوسة في صلاتهم وهم جنب، كما كانت مطلوبة أيضًا ؛ حيث يستبشرون بالمطر في حياتهم العامة – وفي هذا الموقف خاصة – ؛ لأن الأرض كانت بحاجة إلى مطر يثبتها، فأدى نزول المطر هدفًا مزدوجًا بأن كان بشيرًا لهم، وفألاً حسنًا، كما كان معينًا لهم على استقبال الموقف الصعب.

هذه الصورة الحسية الحركية ترتبت عليها صورة حسية منظورة هي صورة الأرض وقد لبدتها الأمطار وأمكن السير عليها في يسر وسهولة بعد أن شق على المشاة عليها، كما ترتبت عليها بعض الصور غير المنظورة؛ حيث ظهرت صورة الطهارة التي بعثت الراحة في قلوب من باتوا على جنابة – وكانت غائبة عن فكرهم – وغابت صورة هي صورة الكآبة التي كانت تملأ قلوبهم بسبب جنابتهم والتي استغلها الشيطان ذريعة له في الوسوسة والبلبلة.

وهنا تستوقفنا كلمة (فوق) في قوله تعالى : "فاضربوا فوق الأعناق" ؛ لأن بعض المفسرين اعتبرها زائدة، والمقصود ضرب الأعناق، والحق أنها ليست كذلك؛ لأن الضرب فوق الأعناق مقصود لذاته، يتجلى ذلك في قول "ابن عطية": "فاضربوا فوق الأعناق" هو الفصيح؛ لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ، يؤيده في ذلك قول "دريد بن الصمة": "اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال"[(1)].

أما من قال: المقصود هو ضرب الرءوس وهو ما فوق الأعناق – كابن عباس – فقد برر له عكرمة بأن الضرب على الرأس أبلغ؛ لأن أدنى شيء يؤثر في الدماغ حينئذ لا تكون لكلمة فوق مزية إلا تحديد المكان، وكان يمكن تحديده بلفظ مباشر هو الدماغ أو الرأس دون الحاجة إلى كلمة (فوق).

وأرى أن كلمة (فوق) أبلغ في التعبير ؛ لأنها تعكس المهارة الفائقة في الضرب؛ إذ ضرب العنق أو الرأس سهل على المقاتل، أما الضرب في هذا المكان

(1) القرطبي المجلد الثالث (ص 1633).

الضيق المساحة فيحتاج مهارة فائقة، وفي التعبير بها توجيه للمقاتلين من المسلمين بأن يكونوا مهرة ذوي خبرة وحنكة.

كما تستوقفنا كلمة (بنان) لنستجلي سرها على النحو التالي: هل المقصود بها الأصابع، ويكون التعبير بها استخدامًا للمجاز المرسل مما تكون علاقته الجزئية، وهو لون محبب من التعبير؟ أم يكون البنان مقصودًا لذاته؟.

أما أنا فأرى البنان مقصودًا لذاته؛ لبيان أن أقل عقاب من الله — وهو قطع البنان — يعطل أعداءه عن الحركة والقتال، وفي ذلك تمهيد للعقاب الأكبر الذي سيترل بهم، مما تشير إليه الآية الأخيرة، كما تطالب الكلمة المسلمين من جديد بوجوب المهارة والدقة؛ لأن ضرب البنان أصعب من ضرب الإصبع، والإصبع أصعب من ضرب الكف، وهكذا.

وهنا نلمح امتدادًا للصورة فهي ليست محدودة بالأعناق، ولكنها امتدت إلى البنان أيضًا فالامتداد هنا امتداد في الحركة، وامتداد في الزمان الذي استغرقته المعركة، وامتداد في المكان الذي دارت عليه رحى المعركة.

ثم نرى في الآية الكريمة: "إذ يوحي ربك" صورتين على طرفي نقيض، تبدو في رضى الله عن المؤمنين، بأن أنزل الله ملائكته ليثبتوا المؤمنين، وأنه سيكون معهم، فكأنه يؤيد المسلمين مرتين: مرة بالملائكة، ومرة أخرى بوجوده

مع الملائكة، وبالتالي سيكون موجودًا مع المؤمنين، وكأنه يطمئن الملائكة بالنصر قبل أن يطمئن المؤمنين به.

والصورة الثانية هي صورة غضب الله تعالى على الكفار وهو يلقي الرعب في قلوبهم.

وهنا أقول: لماذا كانت بشرى المسلمين عن طريق إنزال الملائكة، بينما كان قذف الرعب في قلوب الأعداء مسندًا إلى الله تعالى مما يؤكد حلوله بهم؟.

أما البشرى عن طريق إمداد المسلمين بالملائكة فهو نوع من الإتحاف والتكريم؛ لأنه عندما أنزل الملائكة لم يتخل عنهم ، بل كان معهم، أما إسناد قذف الرعب في قلوب الأعداء إلى الله تعالى فهو رمز إلى سوء المنقلب، وأن العذاب سيكون فوق تصور الكفار واحتمالهم، إمعانًا في كراهيتهم ولعنتهم، ولذلك وصف العقاب بالشدة فقال تعالى: "ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب".

وهنا نلمح نوعين من العقاب: نوع خاص بالمشركين الذين شاقوا الله ورسوله، وأعلنوا تمردهم ومحادتهم للدين، ودعاهم حقدهم على الإسلام على أن اشتركوا في معركة بدر على أمل أن يقضوا عليه وعلى أنصاره، وفي مقدمتهم نبي هذا الدين.

والنوع الآخر من العقاب: هو نوع عام؛ حيث سيكون هذا العقاب وأشد منه لمن يكون على طريق هؤلاء المشركين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (15) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ

جَاءَكُمُ الفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (21)﴾.

المعنى:

بعد أن ترفق الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين في الآيات السابقة، ورسم لهم صورة الإيمان الصادق، وعدد لهم نعمه التي لا تحصى، رأى أن النفوس قد تهيأت للتوجيه الذي يميل إلى العنف والتعنيف؛ حيث ناداهم تعالى ليوجههم الوجهة الصحيحة، ويضع لهم دستور النصر في أية معركة، فطلب إليهم أن يثبتوا للعدو إذا اقترب منهم، أو التقوا معه في معركة من المعارك، وأن يصبروا ويصابروا ويثابروا، ولا بتولوا عن قتاله حتى لا تحيق بهم الهزيمة إلا إذا كان التولي لهدف يحقق النصر في المعركة، كأن تبدو خطة أفضل، أو يكون التولي

لإيقاع كيد بالعدو بالهجوم من خلفهم، أو إيهامهم بأهم الهزموا ، أو ينضموا إلى مجموعة أخرى يتقووت بها، فإذا انعدم الهدف الذي انحاز المقاتلون من أجله – وهو تحقيق النصر – ما جاز لهم أن يفروا أبدًا، إلا إذا كان العدو يفوهم أكثر من الضِّعف؛ إذ المؤمن مأمور بأن يثبت أمام اثنين بعد التخفيف في قوله تعالى من هذه السورة : "**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين**"[1]. وكان الأمر قبل ذلك بتصدي الواحد لعشرة في قوله تعالى من نفس السورة: "**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأهم قوم لا يفقهون**"[1].

أما من فر دون أن يكون له تبرير مقنع من الوجهة الشرعية والقتالية فليس أقل من غضب الله عقابًا، ولا أنسب له من جهنم مأوى، ولا أحق له من مصير إلا ذلك المصير المخزي المؤلم الموجع.

ثم تتحول الآيات إلى بيان فضل الله عليهم، بأن كان وحده الذي قتل الكفار، وما كان تأثير الحصى أو التراب الذي ألقى به الرسول في وجه الكفار

---

[1] الآية رقم (66).

[1] الآية رقم (65).

قائلاً: "**شاهت الوجوه**" . فأصاب من قتل في المعركة أو أصيب فقط إلا بفضل الله تعالى؛ إذ أصيب كل منهم في عينيه ومنخريه وفمه، وما الرسول – صلى الله عليه وسلم – في ذلك، وما المسلمون كذلك إلا وسائل لتحقيق النصر، وكان من فضل الله تعالى أيضًا أن شد على قلوب المؤمنين فأبلوا البلاء الحسن في سبيل الله، ومع هذا الفضل فقد من الله على المؤمنين الصابرين بثواب ما منحهم إياه، كل ذلك لأن القلوب تطهرت، وصدقت النية، وخلص العمل لله، فسمع استغاثتهم فاستجاب لهم؛ لأنه علم بإخلاصهم فكافأهم بما علم من عملهم.

ثم يعود الله تعالى إلى الكفار ليغيظهم بأن أخلف ظنهم وجعل الدائرة تدور عليهم، ذلك أن فرعونهم "أبا جهل" قال وهو يتهيأ لنصرة العير: "اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف فأحِنه الغداة" فقد طلب إلى الله تعالى أن يهلك الرسول – عليه السلام – وصحابته؛ لأنهم كما يزعم لنفسه أقطع للرحم بهذه الحرب، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أتى بما لا عهد للعرب به من دين يخالف دينهم، كما طلب أن يفتح عليه بالانتصار على المسلمين، والفصل بين الفريقين والقضاء على أضلهما، وما كان يدري أنه وفريقه الأضل أعمالاً، والرسول وصحابته الأهدى أعمالاً، ثم يعطي الله تعالى الفرصة للكفار

بأنهم إن تراجعوا عن الصلف والكبر والغطرسة وعصبية الجاهلية، وتخلصوا من عدائهم للإسلام، ودخلوا فيه، فقد حققوا الخير والأمن لأنفسهم، وسوف يغفر الله لهم، ويتقبلهم، فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه.

أما إن عادوا سيرتهم الأولى فإن الله سيعود عليهم بالهزيمة النكراء شر منقلب، ولن ينفعهم حينئذ عدد أو عدة، وسوف تكون خسارتهم فوق التصور والاحتمال؛ لأنهم لا ناصر لهم، ولو ناصرهم أحد من البشر فسوف يبوءون بالخسران المبين؛ لأن قوة الله وقدرته التي تؤيد المسلمين لا يوجد لها مثيل في صفوف المشركين.

ثم يُعرض الله سبحانه وتعالى عن المشركين، ويعود بالنصح والتوجيه على المؤمنين، وطلب إليهم أن يطيعوه ويطيعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذلك أنه "**من يطع الرسول فقد أطاع الله**"[1] وألا ينصرفوا عن طاعته، والاستجابة لأوامره، والانتهاء عن نواهيه، وما دامت وسائل السمع غير معطلة فعليهم أن يستخدموها الاستخدام الأمثل بهذه الاستجابة لما يسمعون من هدي القرآن الكريم، كما نفرهم – تعالى – من تجنب هذه الاستجابة ؛ لأن

[1] سورة النساء. الآية رقم (80).

مثلهم حينئذ سيكون مثل الذين ادعوا أنهم سمعوا، والحقيقة أن ما سمعوه لم يفيدوا به، فكأنهم صم؛ لأنهم عطلوا حاسة السمع، وحالوا بينها وبين ما يسمع حتى لا تقوم عليهم الحجة.

التعليق:

نلاحظ أن الله تعالى صدر الآية الأولى بالنداء الذي يشعر بالبعد، والبعد هنا في الدرجات لا في الأماكن، ثم أردف المنادَى بما وصفهم بالإيمان، ولذلك دلالته ومغزاه؛ فقد أشعرهم بكريم المنزلة التي أعدها لهم في ميزان تقديره العظيم، ثم وصفهم بالإيمان الذي أوصلهم إلى تلك المنزلة العلية، تطويعًا لقلوبهم وترقيقًا لها؛ لتكون أسرع استجابة لما سيطلبه منهم؛ لأن القلوب تميل بفطرتها إلى من يجلها ويرفع قدرها، وكأن الله تعالى أراد أن يثبتهم على الإيمان؛ حيث لا يسوغ منهم ولا يرضى لهم أن يتحولوا عن وجهتهم الإيمانية إلى أية وجهة أخرى.

أما طلب الله تعالى فهو تحريم بل تجريم الفرار إذا التقى الجمعان، وقد نفر من التولي والفرار باستخدام كلمة الأدبار؛ إذ فيها من القبح والمهانة إلى الدرجة التي قال عنها "ابن عطية": (والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشعة على الفارّ، ذامّة له).

ذلك أن الفرار اعتبر إحدى الموبقات السبع التي أشار إليها الرسول — صلى الله عليه وسلم — في حديثه: **"اجتنبوا السبع الموبقات"** قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: **"الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"** [1].

وهنا نلمح ثلاث صور:

صورة منظورة نكراء، وصورة منظورة أيضًا، ولكنها مباحة، وصورة حسناء غير منظورة تتولد عن الصورتين السابقتين.

أما الصورة النكراء فهي صورة التولي يوم الزحف حيث لا يكون له مبرر، ولذلك كان عقابها بشعًا.

والصورة المباحة هي صورة التولي بشروطه، وهي لا تتصف بقبح أو حسن، أما الصورة الحسناء فهي صورة الصابرين الذين صبروا وجاهدوا في الله حق جهاده، فأثابهم إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة جزاء ما قاموا به من جهاد نفسي قبل أن يجاهدوا العدو، وكل هذه الصور يشغل في الخيال مساحة

(1) أخرجه البخاري (6857) كتاب الحدود — باب رمي المحصنات، ومسلم (89) كتاب الإيمان — باب بيان الكبائر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. (م)

زمنية ومكانية بقدر ما يمتد زمن التولي أو الثبات، وبقدر المساحة التي يتحرك فيها كل من هؤلاء وهؤلاء.

هذا ...

وقد انتهى العلماء إلى أن الفرار لا يحسب على صاحبه إلا إذا كان عدد العدو يفوق الضعف، بمعنى أن المائة يجوز لها الفرار إذا زاد العدد عن مائتين، أما إذا بلغ عدد المسلمين اثنا عشر ألفًا فلا يجوز لهم أن يفروا مهما بلغ عدد الكفار؛ إذ قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – صريح في ذلك حينما نادى "أكثم بن الجون" قائلاً: "خير الرفقاء أربعة، وخير الطلائع أربعون، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يؤتى اثنا عشر ألفًا من قلة". وهناك رواية تضيف: "إذا اجتمعت كلمتهم".

وهنا أحب أن أضيف بعض التفصيل، وهو أن الفرار غير مستحب عندما يكون هناك مبرر لفعله، إذا الصبر على المكاره أفضل؛ إذ **"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين"**[1].

---

[1] سورة البقرة. الآية رقم (249).

فجيش مؤتة كان تعداده ثلاثة آلاف مقاتل، في مقابل مائتي ألف، ومنهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة من (لخم وجُذام). و"طارق بن زياد" فتح الأندلس بألف وسبعمائة، وانتصر على "لذريق" ملك الأندلس "وجيشه البالغ سبعين ألف عنان.

بالإضافة إلى أن الفرار سبة في الجبين تطارد صاحبها ما امتد به العمر، واستطال به تالزمن، وإن نفوس الأحرار لتعذبهم عذابًا أليمًا يدفعهم إلى محاولة معاودة القتال، وهذا ما يؤكده "عبد الله بن عمر" عندما خرج في إحدى سرايا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فحاص الناس حَيصة، واضطربوا يطلبون الفرار – وكان واحدًا منهم – وفكروا في أن يذهبوا إلى المدينة ويستعدوا فيها لمعاودة الكرة، وعرضوا أنفسهم على النبي – عليه الصلاة والسلام – لاستطلاع رأيه فيما فعلوا وفكروا، فلما خرجوا إلى صلاة الصبح قاموا إليه وبادروا بقولهم: "نحن الفرارون" فأقبل عليهم الرسول – صلى الله عليه وسلم– وقال: **"لا، بل أنتم العكارون"**[1]، فدنوا منه، وقبلوا يده، واستراحت

(1) الحديث أخرجه أحمد (5566)، الترمذي (1716) كتاب الجهاد – باب ما جاء في الفرار من الزحف، وأبو داود (2647) كتاب الجهاد – باب في التولي يوم الزحف، من حديث عبد الله بن

نفوسهم؛ لأنهم برئوا من خزي الفرار، مع ملاحظة أن الأسلحة متماثلة في ذلك الحين، أو يمكن التغلب عليها مع الصبر والثبات.

وهنا نقف وقفة نتفحص أمر الفرار مليًا، ونفترض الفرض التالي — مع إمكانية احتماله — ويتمثل هذا الفرض فيما لو كان عدد المسلمين في حدود أو أكثر من عدد الكفار، وقد اكتشف المسلمون أن العدو لديه المقدرة على إبادتهم دون التحام، فهل من حق المسلمين الفرار حتى يتهيئوا لهذا النوع من القتال، أم يصبروا لمجرد أن عددهم يقترب من عدد العدو أو يزيد؟.

الرأي الشخصي الذي أراه في ظل هذه المتغيرات والمستجدات أن يولى المسلمين الأدبار ما داموا على نية معاودة الجهاد، فإذا لم يكونوا على هذه النية فقد باءوا بغضب الله ورسوله.

ثم نسأل: هل هذا الفرار خاص بيوم بدر أم عام إلى يوم القيامة؟.

الإجابة السديدة التي أراها نقول فيها: إن الحكم عام بالتولي إلى يوم القيامة؛ لأن هذا الحكم نزل بعد انتهاء المعركة، ولم يحدث فيها فرار فكيف ينطبق عليها؟ وهذا ما ذهب إليه "ابن عباس" وجل العلماء.

عمر رضي الله عنهما، قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد.اهـ (م) **والعكارون**: العطافون الذين يفرون من الحرب ثم يكرون.

ولعل الذين يخالفون هذا الرأي ويعتبرون التولي خاصًا بيوم بدر قد التبس عليهم قول الله تعالى: **"ومن يولهم يومئذ دبره"** واعتقد أن الحديث عن التولي يوم بدر، ولو فكر مليًا وتذكر أن بدرًا لم يحدث فيها فرار لما ذهب إلى ما ذهب إليه؛ لأن الحديث عن التولي يوم الزحف عام وليس عن يوم بدر بخاصة، ولو كان حديث التولي خاصًا بيوم بدر ما ستحق هذا العقاب الشديد الذي نصت عليه الآية الكريمة ، وهي غضب الله، والخلود في النار التي ساءت مستقرًا ومقامًا.

ولو رجعنا إلى الآيتين الكريميتين: "ذلك بأهم شاقوا الله ورسوله"، "ذلكم فذوقوه" فسوف نرى فيهما تمهيدًا للحديث الخشن الذي سيتوجه به الله تعالى إلى المؤمنين في الآية الكريمة: **"يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار"** لتخرج النفوس المؤمنة من الارتخاء النفسي الذي صنعته الآيات السابقة على الآيات الكريمة المذكورة ولتتهيأ لتلقي الخطاب العنيف الذي سيوجههم به الله تعالى إلى صاحلهم وصالح الدولة المسلمة الناشئة.

في قوله تعالى: **"فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"** نقف أمام صور شاخصة وأخرى غائبة، ففي صدر الآية

الكريمة نرى صورة حسية شاخصة هي صورة القتلى وهم يتساقطون صرعى بيد المسلمين عندما ساقهم الله تعالى إلى مقر هلاكهم فأمكنهم منهم، أو أن كثيرًا من القتلى كان هلاكهم بالملائكة الذين أمدهم الله بهم، حينئذ يكون أحد جناحي الصورة حسيًا وهم المشركون، والجناح الآخر غير منظور لعامة المسلمين وهم الملائكة.

أما الرمي فإنه يمدنا بصورة مركبة منظورة، هي صورة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو يقبض حفنة من التراب – أو الحصى – ويرمي بها في وجوه القوم، فيقع الأذى بكل من قتل من المشركين، أو يقع بهم جميعًا على بعض الروايات.

هذه الصورة المنظورة يولد الخيال منها صورة غير منظورة، هي صورة قدرة الله تعالى التي جعلت الحصى – أو التراب – ينتشر في مساحة مكانية كبيرة لا تصل إلى أطرافها أية قوة بشرية ، وهنا نرى الصورة امتدت زمانًا ومكانًا، وإن كان امتداد المكان أوضح من امتداد الزمان.

ومما يقال في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين بعد المعركة أخذ كل منهم يذكر بلاءه فيها حتى أوشك أن يكون حديثهم فخرًا وتيهًا وعُجبًا، فأراد الله أن يردهم إلى الصواب، ويذكرهم بأنهم مجرد وسائط في سبيل تحقيق النصر؛

لأن الله تعالى لو لم يقدره لهم لانهزموا ؛ لأن الحسابات البشرية كانت ترجح انتصار الكفار.

ولكن:

هل ينطبق ذلك على الرسول حتى نهاه الله تعالى عن الفخر والعجب والتيه عندما رمى بالتراب في وجوه الكفار فأصاب من أصاب من الكفار؟.

الحقيقة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يكن مقصودًا لذاته، إنما هو لون من ألوان الرد إلى الطريق الصحيح بالنسبة للمسلمين، وتطييبًا لنفوسهم من ناحية أخرى، حتى لا يصيبهم ما نسميه إحباطًا؛ إذ عندما يخاطب الله تعالى نبيه بذلك يخف وقع الألم النفسي على المسلمين عند تلقيهم الخطاب في صدر الآية الكريمة.

ونصل إلى قوله تعالى: **"إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح"** لنرى فيها مشاكلة رائعة، ذلك أن الكفار قالوا – وعلى رأسهم " أبو جهل" – : "اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة" فقد طلبوا بدعائهم هذا أن ينصرهم الله تعالى على المسلمين؛ لأن الكفار يتصورون أنهم أوصل للرحم من المسلمين، فكان الرد عليهم هو الهزيمة النكراء دلالة على أنهم مخطئون في تصورهم، ولذلك فالفتح المذكور ليس فتحًا لهم وإنما هو للمسلمين، وإنما

ذكرت الهزيمة التي حاقت بالكفار وعبر عنها القرآن الكريم بلفظ: (الفتح) على طريق المشاكلة؛ لأن اللفظ ورد في مصاحبة لفظ (تستفتحوا)، والمشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لورود ذلك الشيء بصحبة ذلك الغير.

ثم نلمح في الآية الكريمة كثافة تصويرية؛ حيث نرى صورة انتهاء الكفار عن عداوة المسلمين ومحاربتهم في دينهم، تقترن بها صورة الرضى عليهم من الله تعالى إن هم فعلوا ذلك.

ومن ناحية أخرى نرى اقتران صورتين أخريين هما: صورة عودة الكفار إلى محاربة المسلمين، تقترن بها صورة عودة الكفار إلى محاربة المسلمين، تقترن بها صورة عودة الله تعالى عليهم بالهزيمة في قوله تعالى: **"وإن تعودوا نعد"** ، وقد استوعبنا أبعاد الصورتين عن طريق المجاز بالحذف؛ حيث كان المحذوف معلومًا، وذلك من بدائع الأسلوب البليغ.

هذه الصور الأربع غير منظورة؛ لأنه عند نزول هذه الآية الكريمة لم يكن قد وقع شيء منها.

وحتى ينزع الله تعالى من قلوب المشركين أملهم في النصر عندما يعودون لمحاربة المسلمين فإنه لم يكتف بقوله: **"وإن تعودوا نعد"** ولكنه تعالى زرع اليأس في قلوبهم بعد أن نزع الأمل منها، وذلك بأن نفى غناء جموعهم

واجتماعهم عنهم شيئًا مهما كان عددهم كثيرًا، وأحبط هذا الأمل مرة أخرى بأن أكد تأييده للمؤمنين بمعيته لهم في قوله تعالى: **"وأن الله مع المؤمنين"** وفرق بين أن يكون الله تعالى في جانب المؤمنين، بينما الكافرون لا مولى لهم، ولا نصير إلا أفراد من البشر محدودو القدرة والطاقة، ومعظم العرب يعرفون أنه من كان الله معه فالنصر حليفه، بدليل توجه "أبي جهل" إلى الله يطلب نصره في قوله: "اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف فأحِنه الغداة" وهو نفسه الذي قال لـــ "حكيم بن حزام" يوم أرسله "عتبة بن ربيعة" يطلب إليه الكف عن قتال المسلمين فقال – أبو جهل – : "كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد"، وما صدر عن "الأخنس بن شريق" – وكان مشركًا – وهو يطلب إلى بني زهرة عدم الاشتراك في الحرب ما دامت العير قد نجت ؛ حيث قال: "يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرقة بن نوفل"، وقد قال الله تعالى في ذلك:**"ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله"**[1] ولكنهم ظلوا على شركهم بالله كبرًا ومكابرة وعنادًا، وضلالاً منهم في طريقة العبادة؛ إذ عبدوا الأصنام اعتقادًا منهم أنها وسائط تقربهم إلى

---

[1] سورة لقمان. الآية رقم (25)، وسورة الزمر. الآية رقم (38). وقد ورد اعتراف الكفار بالله في سورة العنكبوت الآية رقم (61، 63)، وسورة الزخرف. الآية رقم (9، 87).

الله، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: "**ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**"[2].

وفي النهاية نرى صورتين على طرفي نقيض: صورة مَن سمعوا الهدى ولكنهم لم يفيدوا مما سمعوا — وهي صورة قبيحة — وصورة تولدت عنها وهي صورة من أفاد مما سمع — وهي صورة حسنة مطلوبة — وسر التقابل هنا هو التنفير مما هو قبيح، والترغيب فيما هو حسن، وهو ما يريده الله تعالى من عباده المؤمنين.

[2] سورة الزمر . الآية رقم (3).

من أدب النبوة

خطب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال:

"أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتِب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأن الذي نُشَيِّعُ من الأموات سُفْر عما قليل إلينا راجعون.

نُبوِّئُهم أجداثَهم، ونأكل من تُراثِهم، كأنَّا مخلّدون بعدهم، ونسينا كلَّ واعظة، وأمِنَّا كل جائحة.

طُوبَى لِمَن شغله عيبُهُ عن عيوب الناس.

وطوبى لِمَن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة.

طوبى لِمَن زكت نفسُهُ، وحَسُنت خليقتُهُ، وطابت سريرتُهُ، وعزل عن الناس شرَّهُ.

طوبى لِمَن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعَتْه السُّنةُ، ولم تَسْتَهْوِه البدعةُ".

المفردات:

فيها: في هذه الدنيا. **نشيع**: نودع. **سفر**: جماعة المسافرين. **نبوئهم**: نترلهم. **الأجداث**: القبور. **التراث**: ما يتركونه ميراثًا. **مخلدون**: دائمون. **الواعظة**: ما يعظ الإنسان كالموت. **الجائحة**: الهلاك. **طوبى (مؤنث أطيب)**: الحسنى والخير. **زكت**: صلحت. **أهل الذل والمسكنة**: يقصد الفقراء. **طابت**: صفت. **سريرته**: قلبه. **عزل**: أمسك ومنع. **الفضل**: القدر الزائد. **وسعته السُّنة**: عمل بها. **البدعة**: العمل المخالف للقرآن والسنة. **لم تستهوه البدعة**: لم تستولِ عليه.

العرض:

يتجلى في هذه الخطبة إشفاق الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أمته، ورغبته الملحة في أن تتعظ وتفكر حتى تكتب لها السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشار إليه الوحي بقوله: "**حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**".

ومن مظاهر هذا الحرص أنه خطب الناس وطلب إليهم أن يتعظوا بالموت، فمن أراد واعظًا فالموت يكفيه، ولكن الرسول – عليه السلام – لم يطلب ذلك إلا بعد أن رأى انصراف الناس عن التفكير في الموت كأنهم مخلدون في هذه الدنيا، وأن الموت كتب على الأمم الأخرى دون الأمة الإسلامية، لذلك عمم النداء، فأدخل الذين يتعظون ممن لا يخلوا منهم عصر النبوة مع الذين لا يتعظون، ولذلك كان عجب الرسول عظيمًا، حينما نراه يكرر (كأن) وكأن المسلمين ابتعدوا كثيرًا عن التفكر في الآخرة، بدليل أنهم كل يوم يودعون ميتًا – أو أكثر – ثم يتخيلون أنه سيعود عما قريب، ولا يفكرون في أن الموت سيترل بهم لا محالة، حتى ولو كانوا في بروج مُشَيَّدة.

ودليل آخر على تلك الغفلة هو أنهم يدفنون موتاهم، وينتفعون بما تركوا من ميراث، وكأنهم سيخلدون في هذه الدنيا، وينعمون بذلك الذي ورثوه، وغفلوا عن الاتعاظ بالموت، وظنوا أنهم في حماية من الكوارث والمهالك.

ثم ينتقل الرسول – عليه السلام – إلى جانب آخر من الهداية والتوجيه لقومه، بأن حببهم في أن ينشغل الإنسان بعيب نفسه يصلحه، فهو أفضل من

الانشغال بعيوب الناس وإذ لالهم بها، ثم يدعو مشجعًا على الإنفاق من المال الذي اكتسبه الإنسان من طريق حلال لا شبهة فيه ولا معصية.

كذلك فقد حمس على مجالسة العلماء للإفادة بعلمهم وحكمتهم، كما حث على التواضع بمجالسة ومخالطة الفقراء والمساكين، ويعود الرسول – عليه السلام – فيَعِدُ بالخير كل من طهّر نفسه من الحقد والحسد والكراهية والبغضاء، وصارت أخلاقه حميدة يعامل بها الناس معاملة رقيقة طيبة، وكان قلبه صافيًا من كل شر، لا يؤذي أحدًا ، ولا يضمر له عداء ولا يشجع غيره على الإيذاء أو الشر.

ثم يعود مرة أخرى فيشجع على الإنفاق في سبيل الله، وإمساك اللسان عن قول الزور وإيذاء الناس به، كما يدعو إلى العمل والتمسك بسنته – صلى الله عليه وسلم – ويحذر من فعل البدع وما حرم الله.

تعقيب:

يتعجب الرسول في هذه الخطبة من المسلمين الذين عاشوا فترة من الزمن على عهده في غفلة عن التفكير والتدبر والتأمل في الموت وما ينبغي عمله قبله حتى ينجوا من العقاب يوم القيامة، ثم أخذ يحدد مظاهر الغفلة ، وهي: تَصَوُّر الناس دوامَهم في هذه الدنيا دون أن يفكروا في أنهم سيموتون مثلما

مات هؤلاء الذين يشيعون إلى قبورهم، وهم بتصورهم عدم الموت كأنهم وجدوا ما يحميهم منه، ثم رغبهم في جملة من الأقوال والأفعال على نحو ما سبق شرحه.

هذا ...

ونلاحظ أن الرسول كان يكرر كلمة (طوبى) وكان الهدف من ذلك أن ينفرّهم مما هم فيه من غفلة ؛ إذ ليس فيها خير أو فائدة، ويحمسهم على القول الطيب والعمل الصالح ليفيدهم ذلك في الدنيا والآخرة.

وأحيانًا كان الرسول يحذف كلمة (طوبى) اعتمادًا على فهمها مقدرة في الكلام، فإذا طال الكلام كررها حتى لا يغيب الترغيب عن أذهانهم.

أما أسلوب الرسول فهو على النحو الذي سيرد في التعقيب على أول خطبة لأول جمعة في المدينة.

خطبة الرسول
في أول جمعة جمعها بالمدينة

(1)

الحمد لله، أحمده، وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن

محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى، والنور، والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل[1].

(2)

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط، وضل ضلالاً بعيدًا، وأوصيكم بتقوى الله؛ فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحُضَّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما

(1) **أستعينه**: أطلب منه العون. **أستغفره**: أطلب منه المغفرة. **أستهديه**: أطلب منه الهداية. **الهدى**: ما يهدي. **النور**: ما ينير القلوب. **الموعظة**: ما يعظ ويرشد. **فترة من الرسل**: بعد انقطاع الأنبياء والمرسلين. **ضلالة**: بُعْد عن الحق. **دنو**: قرب. **الأجل**: الموت.

قدم، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد[2].

(3)

والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك؛ فإنه يقول عز وجل: **"ما يبدَّل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد"**، فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، **"ومن يتق الله يكفِّر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا"**. ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا[3].

---

[2] **رشد**: اهتدى. **غوى**: ضل. **فرط**: زاد في الضلال . **يحضه**: يشجعه. **يحضه على الآخرة**: يشجعه على العمل الذي ينفعه في الآخرة. **احذروا**: خافوا. **ذكرا**: تذكيرًا . **وجل**: خوف. **عون**: مساعد. **صدق**: صادق نافع. **تبتغون**: تريدون. **أمر الآخرة**: المغفرة. **السر**: الخفاء. **ذكرًا**: سمعة طيبة. **عاجل أمره**: يقصد في الدنيا. **ذخرًا**: ثوابًا. **يفتقر**: يحتاج. **يود**: يتمنى. **بينه (الأولى)**: تشير إلى الشخص الذي لم يقدم عملاً صالحًا في الدنيا . **بينه (الثانية)**: العمل السيء. **أمدًا**: مسافة.

[3] **أنجز**: حقق. **لا خلف**: لا يتخلف وعد الله. **يبدل**: يغير. **القول**: الحكم. **يكفر**: يمحو. **سيئات**: ذنوب. **فاز فوزًا عظيمًا**: رضي الله عنه.

(4)

خذوا حظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، وهج لكم سبيله، **"ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين"** فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين[4] .

(5)

[4] **حظكم**: ما تحبون من الدنيا. **لا تفرطوا**: لا تهملوا. **جنب الله**: حق الله. **هج**: وضح. **سبيله**: طريقه.**أحسنوا**: أي أحسنوا إلى الله بالعبادة. **حق جهاده**: الجهاد الصادق. **اجتباكم**:اختاركم وأحبكم.

فأكثروا ذكر الله، واعملوا لِما بعد الموت؛ فإنه من يصلح بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم[5].

العرض:

(1)

ابتدأ الرسول – عليه السلام – خطبته بحمد الله تعالى أن هداه إلى الإسلام، ومنحه نعمًا كثيرة لا تعد ولا تحصى، وطلب إليه أن يعينه على تبليغ الرسالة والقيام بأعبائها، كما طلب إليه أن يغفر دنوبه، ويهديه إلى الصراط

---

[5] **اعملوا**: أي: اعملوا صالِحًا في الدنيا. **يكفه**: يحفظه. **يقضي**: يحكم. **يملك من الناس**: يملكهم.

المستقيم، وقد أعلن إيمانه به إيمانًا قويًا لا كفر بعده أبدًا، وقد شهد لله بالوحدانية، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد في الأرض لا شريك له في العبادة أو الملك. كما شهد بأنه عبد الله ورسوله، أرسله الله ليهدي الناس ويخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، كما أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم، وذلك بعد أن مضت فترة طويلة لم يرسل إلى الناس نبي أو رسول، وكاد علم الناس عن الله ينتهي ويزول، ولذلك عاشوا في ضلال مبين، وكانت بعثته – صلى الله عليه وسلم – قريبة من يوم القيامة إذا ما قيست بالزمن الذي مضى قبل الرسالة، كما أنها قريبة من نهاية عمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

(2)

أشار الرسول – عليه السلام – في هذا الجزء من الخطبة إلى أهمية الطاعة، والتقوى، وطهارة القلب، وصفاء النية، فذكر أن الذي يطيع الله ورسوله أمرًا أو نهيًا فقد اهتدى إلى الطريق المستقيم، أما عصيانهما ففيه ضلال كبير وبعد عن رضى الله ورسوله، ثم أوصى الرسول المسلمين بالتقوى، وأشار إلى أن أفضل وصية يقدمها المسلم لأخيه المسلم أن يشجعه على العمل الصالح الذي ينفعه في الدنيا والآخرة، وعلى العاقل أن يحذر ويخشى غضب الله وعقابه، ثم أكد أن الذي يتقى الله خوفًا من عقابه فإنه قد اتخذ لنفسه معينًا

مخلصًا صادقًا يوم القيامة، كما أشار إلى أن الذي يطهر قلبه ويجعله مملوءًا بحب الله ورسوله وطاعتهما في السر والعلن ويكون ذلك العمل خالصًا لوجه الله، يجعل الله له في الدنيا ذكرًا حسنًا وسمعة طيبة.

ويمنحه الله ثوابًا عظيمًا يوم القيامة الذي يحتاج الإنسان فيه إلى ثواب العمل الصالح، أما إذا خالف ذلك وقدم عملاً سيئًا فإنه يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين هذا العمل مسافة بعيدة، والهدف من ذلك هو الندم على ترك الصالحات في الدنيا. ثم يكرر النبي – عليه السلام – تحذير الله لعباده حتى يتذكروا دائمًا عقابه الشديد فيبتعدوا عما يغضبه تعالى، ومع هذا فإن الله رءوف رحيم بعباده، إذا تاب عبد تاب الله عليه في الدنيا والآخرة.

(3)

أقسم الرسول – عليه السلام – بالله الذي يصدق في قوله دائمًا، ويحقق وعده باستمرار، يقسم بالله أن ما ذكر سابقًا لا يتخلف منه شيء، واستدل على ذلك بقول الله –عز وجل - : **"ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد"** ثم يكرر طلبه إلى المسلمين بأن يتقوا الله في الدنيا لينفعهم ذلك يوم القيامة، وأن تكون التقوى في السر حيث لا نفاق ، وفي العلن ليقتدي بها المقصرون، ويضع نتيجة التقوى أمام أعين الناس ليحمسهم ويشجعهم عليها،

وهي تكفير الذنوب والسيئات وتعظيم الأجر والثواب يوم القيامة، والفوز العظيم برضى الله ودخول الجنة، والنجاة من النار.

(4)

يوضح الرسول في هذا الجزء من الخطبة أن للإنسان أن يمنع نفسه بما أحله الله في الدنيا، ولا نبالغ في هذه المتعة حتى لا تلهينا عن عبادة الله وطاعته، ثم ذكَّر المسلمين بجانب من نعم الله تعالى عليهم، وهي أن الله علمهم كتابه الكريم، ووضح لهم الطريق المستقيم ليختبر الصادقين في إيمانهم، ثم يطلب إليهم أن يحسنوا إلى الله بالعبادة والتقوى والإقرار له بالوحدانية، كما أحسن الله إليهم بنعمه التي لا تحصى، كما طالبهم بمعاداة أعداء الله، وأن لا يتخذوا منهم أصدقاء، وعليهم أن يجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله بصدق وإخلاص، فقد اصطفاهم واختارهم لذلك وشرفهم بتسميتهم مسلمين.

(5)

عاد الرسول – عليه السلام – فطالب بالإكثار من ذكر الله تعالى، وألا نتقطع عن عبادته وتقواه، وأن نعمل صالحًا في الدنيا لينفعنا ذلك العمل يوم القيامة ذلك أن من أصلح العلاقة بينه وبين الله يحميه الله مما ينويه الناس له من شر، فالله وحده الذي يحكم على الناس ويملكهم، وليس لهم عليه حكم إو

إرادة ، فهو أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، والقوة من قوته تعالى، فالإنسان في هذه الحياة ضعيف ذليل.

تعقيب:

الناظر في خطبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – يستخلص منها بعض الجوانب الفنية، كان بعضها غير متوفر فيما سبق من خطب الجاهلية على وجه الشيوع، وبعضها اعتمد على الإثارة، وبعضها خضع للبيئة الإسلامية الجديدة، كما توفر فيها مطابقة مقتضى الحال الذي برعت فيه البلاغة العربية.

أما الجديد الذي لم يتوفر للخطبة الجاهلية فهو التمهيد للموضوع بمقدمة قرر فيها الرسول أن الحمد لله، والاستعانة والهداية به، وأنه يستغفر ربه، ولا يكفر به، ثم شهد بوحدانيته، وأنه أرسله بالهدى والموعظة الحسنة على فترة من الرسل.

هذه المقدمة صارت سنة متبعة، لدرجة أنهم أطلقوا على الخطبة التي لا تتضمن مقدمتها ذكر الله أطلقوا عليها كلمة "بتراء".

وقد كان لتلك المقدمة فضل إثارة الأذهان ، وتحريك العقول والقلوب، فكانت بذلك مفتاحًا لمغاليق القلوب والأسماع، هيأتهم لتلقي الموضوع وتدبر معانيه.

كذلك فإن الجديد في الخطبة هو تلك الخاتمة التي شاعت بعد استخدام الرسول – صلى الله عليه وسلم – لها، وهي في هذه الخطبة تتمثل في قوله: "فأكثروا ذكر الله" إلى آخر الخطبة.

ومن المثير في الخطبة أيضًا أن الرسول – عليه السلام – نَوّع في أسلوبه بين الخبر والإنشاء؛ تنشيطًا للأذهان، وجذبًا للأحاسيس.

وقد اعتمد الرسول على أسلوب الاسترسال؛ حيث لم يعمد إلى السجع أو المزاوجة إلا ما ندر من ذلك، وإن كان التضاد – العفوي – بين الألفاظ والجمل صنع للنفس موسيقى محببة.

كما كان الرسول يسلك مقتضى الحال في تبليغ هدايته وإرشاده، فرأى أن يخلو أسلوب الموعظة من الألفاظ الغريبة أو المعقدة، وهذا الأسلوب هو أنسب الطرق لإيصال الأفكار من أخصر طريق وأيسره، وأيضًا لأن المقام يحتاج تقرير المعاني في الأذهان، فقد لجأ الرسول إلى الإطناب؛ حيث تتفاوت القدرات في الاستيعاب والاقتناع.

وقد خضعت الخطبة للبيئة الجديدة؛ إذ استمدت معانيها وأفكارها من القرآن الكريم، وسار الرسول على منهاجه أسلوبًا ومعنى ولفظًا، بل كان

يقتبس منه ما يناسب المقام، حتى صار الاقتباس تقليدًا متبعًا، وصارت الخطبة التي تخلو منه تسمى "شوهاء".

رسالة عمر بن الخطاب في القضاء

ولّى عمر – رضي الله عنه – "أبا موسى الأشعري" قضاء البصرة، ثم كتب إليه هذه الرسالة يرسم له فيها كثيرًا من أصول القضاء:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس: سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة[1]، وسُنَّة مُتَّبعة[2]، فافهم[3] إذا أدلي[4] إليك؛ فإنه لا ينفع تكلّم بحق لا نفاذ[5] له . آس[6] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك[7]، ولا

---

(1) **فريضة محكمة**: أمر واجب له أصول وقواعد.

(2) **سنة متبعة**: طريقة جرى عليها الناس.

(3) **افهم**: فكر.

(4) **أدلي إليك**: تقدم إليك كل فريق بحجته.

(5) **لا نفاذ له**: لا يصل إلى ذهنك لانصرافك عنه.

(6) **آس بين الناس**: سَوِّ بين الناس.

(7) **حيفك**: ظلمك وميلك معه بالباطل.

ييأس ضعيف من عدلك، البيّنة[8] على من ادّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلّ حرامًا، أو حرّم حلالاً[9].

لا يمنعنّك قضاء قضيته اليوم فراجعت[10] فيه عقلك، وهُدِيت فيه لرشدك[11] أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة[12] الحق خير من التمادي[13] في الباطل.

الفهمَ الفهم[14] فيما تَلَجْلَجَ[15] في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأشباه[16] والأمثال[17]، فقِس الأمور عند ذلك، واعهد إلى أقربها إلى

---

[8] **البينة**: كل ما يقدم من أدلة.

[9] **حرم حلالاً**: خالف أمور الدين.

[10] **راجعت**: فكرت فيه مرة ثانية.

[11] **رشدك**: صوابك.

[12] **المراجعة**: الرجوع.

[13] **التمادي**: الاستمرار.

[14] **الفهم الفهم**: افهم أي: الزم الفهم.

[15] **تلجلج**: تردد.

[16] **الأشباه**: الأمور المتشابهة.

[17] **الأمثال**: الأمور المتماثلة.

الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادّعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا[18] ينتهي إليه، فإذا أحضر بيّنته أخذت له بحقه، وإلا استحللت[19] عليه القضية؛ فإنه أنفى[20] للشك وأجلى[21] للعمى.

المسلمون عدول[22] بعضهم على بعض، إلا مجلودًا في حد، أو مجرَّبًا عليه شهادة زور[23]، أو ظنينًا[24] في ولاء أو نسب ؛ فإن الله تولى منكم السرائر[25]، ودرأ[26] بالبيّنات والأيمان، وإيّاك[27] والغَلَق[28] ، والضَّجَرَ

[18] **أمدًا**: موعدًا محددًا.

[19] **استحللت**: رفضت.

[20] **أنفى للشك**: أكثر إبعادًا له.

[21] **أجلى للعمى**: أكشف للجهل في الحكم.

[22] **عدول**: متساوون.

[23] **زور**: كذب.

[24] **ظنين**: متهم، والولاء هو الانتساب لِمن أعتق، والنسب للأب.

[25] **السرائر**: ما يخفيه الإنسان.

[26] **درأ**: منع.

[27] **إياك**: احذر.

[28] **الغلق**: الضيق وعدم الصبر.

والتأذي[29] بالخصوم، والتنكر[30] عند الخصومات؛ فإن الحق في مواطن الحق يعظّم الله به الأجر، ويحسن به الذخر[31]، فمن صحت[32] نيته وأقبل[33] على نفسه كفاه[34] الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق[35] للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه، شانه[36] الله، فما ظنك بثواب الله – عز وجل – في عاجل[37] رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام.

العرض:

تعد هذه الرسالة دستورًا هامًا للمسلمين في القضاء ؛ إذ رسمت مبادئه وحددت قواعده ، وأرست دعائمه، فوضَّحت للقاضي كيفية السلوك مع

---

(29) **التأذي**: إظهار الكره للخصوم.

(30) **التنكر**: التغير.

(31) **الذخر**: الثواب.

(32) **صحت نيته**: صفا قلبه من الحقد.

(33) **أقبل**: حاسب.

(34) **كفاه الله**: حفظه.

(35) **تخلق للناس**: أظهر لهم غير ما يخفي.

(36) **شانه**: قَبّحه.

(37) **عاجل الرزق**: الرزق العاجل في الدنيا.

المتقاضين؛ لأن القضاء أمر واجب، وطريقة جرى عليها الناس، وهذه سنة الحياة؛ لأن الناس يختلفون، وما داموا يختلفون فلابد من قاض يحكم بينهم.

وقد وضع عمر – رضي الله عنه – هذه المبادئ أمام القضاة ليهتدوا بها إلى الحكم الصحيح، من هذه المبادئ:

الاستماع إلى المتخاصمين والشهود في رفق وأناة ليستطيع القاضي أن يفصل في القضية على هدى وبينة.

كما فرضت الرسالة على القاضي أن يسوي بين المتخاصمين في كل شيء، حتى في نظراته وابتساماته، فلا يدني من مجلسه أحد المتخاصمين، ويبعد الآخر ؛ لأن ذلك يطمئن الضعيف، ولا يجعل القوي يطمع في غير حقه.

وبينت الرسالة أنه يجب على المدعي أن يثبت دعواه، بالدليل المادي أي: بالشهود والوثائق والمستندات، فإذا لم تكن عنده أدلة وأنكر المدعى عليه وجبت اليمين على المدعي.

كذلك إذا اتفق المتخاصمان على التصالح وجب على القاضي أن يتم هذا الصلح، إلا إذا كان مخالفًا لما جاء به الدين.

وعلى القاضي أن يرجع إلى الحق إذا تبين له أنه أخطأ في حكم سابق ولا ضير عليه في ذلك؛ لأن في هذا صيانة لحقوق الناس.

وتبين الرسالة مصادر التشريع الإسلامي – وهي القرآن الكريم، والأحاديث النبوية – فإذا عرض للقاضي ما لم يرد فيه نص لجأ إلى القياس والاجتهاد بعد دراسة شاملة.

أيضًا على القاضي أن يحدد موعدًا للمدّعي يحضر فيه ومعه بينته، وإذا انقضى الموعد و لم يحضر المدعي تلغى دعواه، ولا ينظر فيها.

كما أنه لا تقبل شهادة المحكوم عليه في حد كشارب الخمر، أو المتهم في نسبه أو ولائه.

وقد ألزمت الرسالة القاضي بأن يكون واسع الصدر، فلا يتبرم بالناس ولا يضيق صدره بهم.

ويختم عمر – رضي الله عنه – رسالته بتوجيه نصيحة عامة للقاضي والمتخاصمين والشهود، وهي:

ترك التمويه والخداع لينال الجميع الأجر والثواب من الله.

وأسلوب الرسالة يَمتاز بالوضوح والدقة في التعبير ، ويؤكد لنا أن عمر – رضي الله عنه – كان يؤدي الأفكار والمعاني في ألفاظ دقيقة، وعبارات واضحة لا تعرف التكلف والغموض، فالأسلوب سهل، والعبارات متماسكة تخلو من السجع والمحسنات البديعية، شأنها في ذلك شأن أساليب العصر.

حسان بن ثابت

هو "أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر" الأنصاري الخزرجي أبًا وأمًا، والنجاري أبًا، وشاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأشعر أهل المدر، وفحل من فحول الشعراء المخضرمين – على أرجح الأقوال – .

نشأ "حسان" في الجاهلية بين أسرة عظيمة الشأن والجاه، فجده "المنذر" خطيب قومه في الملمات، وكان ممن تقبل أقضيتهم، في الوقت الذي كانت الأوس والخزرج ترفضان أقضية الآخرين، كما كان يحتمل من ديات القوم لأهله ولغيرهم من الأوس خاصة ديات يوم "سُميحة" ذلك البئر الذي جرت عنده حرب "سُمير" قرب المدينة.

كذلك كان والده "ثابت بن المنذر" تحكمه الأوس والخزرج فيما ينشأ بينهما من حروب، وله في قومه مكانة عظيمة؛ إذ استن سنن أبيه من تضحية وبذل وعطاء ونصرة.

وأخوه "أوس بن ثابت" كان ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية مع الثلاثة والسبعين رجلاً من الأنصار ، واقترن بشخصية عظيمة في بداية الهجرة ؛ فقد

آخى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بينه وبين "عثمان بن عفان" ذلك الصحابي الجليل، والخليفة الثالث للمسلمين ، وكانت تجمعه بالرسول – عليه السلام – قرابة قريبة؛ إذ كان بنو النجار يشكلون العدد الأكبر من الخزرج، ولهم منزلة عظيمة بين قومهم، ومعروف أن بني النجار أخوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – ؛ إذن فـ "حسان" من دوحة عريقة الأصل والمحتد، والمجد، والشرف، والرفعة، كما كانت لـ"حسان" قرابة ونسب بالغساسنة بالشام صرح بها في قوله معتزًا بها:

منهم أصلي فمن يفخر به يعرف الناسُ لفخرا لمفتخرِ
نحن أهل العز والمجد معا غير أنكاس ولا ميل عسر

ولد "حسان" بالمدينة عام (563) للميلاد، وكان يكنى "أبا الوليد" و"أبا عبد الرحمن" و"أبا حسام" ولما شب عن الطوق وصار له في الشعر سن وناب، مدح الغساسنة في الجاهلية ونال جوائزهم ، كما اتصل بالمناذرة في الحيرة، ومدحهم، ونال منحهم المجزية.

وقد شهد "حسان" الصراع الذي كان يدور بين الأوس والخزرج؛ حيث كانت الخزرج تشعر دائمًا بالسيادة والاستعلاء على الأوس مما جعل الأخيرة

تستعين بقريش واليهود، وقد سرت نزعة الاستعلاء إلى "حسان" وظهرت جلية في قوله:

ويثرب تعلم أنا بها　　إذا التبس الأمر ميزانها
ويثرب تعلم أنا بها　　إذا قحط القطر نوآنها
ويثرب تعلم أنا بها　　إذا خافت الأوس جيرانها

هذا التعالي جعل "حسانًا" يخاطب الأوس في صلف وكبر وغرور؛ حيث يعتبر القتيل الواحد من قبيلته يعدل ألفًا وأكثر ؛ إذ يقول:

قتلتم واحدًا منا بألف　　هَلاَ لله ذا الظفر المبين
وذلك أن ألفكم قليل　　لواحدنا أجل أيضًا ومين[1]

ولقد كانت ذرابة لسانه واحدًا من أسباب الغرور والتعالي؛ إذ كان يجد فيها ملاذًا وحصنًا لنفسه ولقومه، وقد عبر عن تلك الذرابة بقوله:

لساني صارم لا عيب فيه　　وبحري لا تكدره الدلاء[2]

---

(1) **مين**: يعني مئين.

(2) للشطرة الأولى رواية أخرى تقول: لساني مغول، والمغول السيف الدقيق الحاد.

وقد دافع "حسان" عن قبيلته، وتحمل عبء الدفاع عنها، وأذاع مفاخرها، وخاض غمار المعارك في سبيل ذلك، وأبلى فيها بلاء حسنًا .

كان "حسان" دائم الإشادة بقومه، ولا يترك سبيلاً إلى ذلك إلا وقد سلكها، نرى ذلك في تشفّيه من الأوس بعد أن انهزموا أمام الخزرج في يوم الربيع، وكان تشفيه بالتغزل في "ليلى بنت الخطيم" – الأوسية- ليغيظهم بذلك، وقد تصدر هذا التشفي مطلع قصيدته التي افتخر فيها بهذا النصر العظيم، ومما قال عن "ليلى" وهي تتبختر في مشيتها على أرضها التي صارت خرابًا:

مهاة من العين تمشي بها ... وتتبعها ثم غزلانها

وقفت عليها فساءلتها ... وقد ظعن الحي ما شأنها؟

فعيّت وجاوبني دونها ... بـــما راع قلبي أعوانـــها

هذا الصراع الذي عاشه "حسان" بكل أبعاده صرفه بعض الوقت عن أن يفكر في أمر الدين الجديد، وقد كان لديه ما يحركه نحو هذا الدين؛ إذ كانت ذاكرته تختزن أفكارًا عن صاحبه وهو ابن سبع أو ثمان سنين؛ إذ سمع يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على شرف بيثرب ويقول: "يا معشر يهود" فلما اجتمعوا حوله قال لهم: "طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به"، ولم يلفت نظره إليه إسلام أخيه مع من أسلم في بيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر من البعثة، ولكن

حميته لقومه كانت بمثابة الإرهاص لإسلامه، ذلك أن قريشًا حين علمت نبأ اليثربيين الذين أسلموا وبايعوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند العقبة للمرة الثانية هالها أمرهم، خاصة أن عددهم تزايد بدرجة كبيرة عما كانوا عليه في العقبة الأولى في العام الحادي عشر من البعثة؛ حيث كانوا ستة نفر، وتبعهم في العام التالي اثنا عشر رجلاً، حينئذ حاولت قريش القضاء عليهم ليئدوا الإسلام في مهده بالمدينة، إلا أن القوم نجوا منها إلا "سعد بن عبادة" و"المنذر بن عمرو بن خنيس" فوقع "سعد" في أسرهم، واستطاع "المنذر" أن يهرب منها، فقال "ضرار بن الخطاب بن مرداس" القرشي في ذلك:

تداركت سعدًا عنوة فأخذته　　وكان شفاء لو تداركت منذرا

ولو نلته طلت هناك دماؤه　　وكان حريًا أن يهان ويهدرا

فتحركت الحمية في نفس "حسان" تجاه صاحبيه، ورد على "ضرار" بدافع العصبية لقومه دون أن يكون للإسلام أثر في ذلك، وكان مما قال:

لست إلى سعد ولا المرء منذر　　إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا

ثم ذكره بفضل "أبي وهب المخزومي" خال "عبد الله بن عبد المطلب" عليه حينما عفا عنه بقوله:

فلولا أبو وهب لَمرت قصائد على شرف البرقاء[1] يهوين حسرا

ثم فخر "حسان" بنفسه وبشعره قائلاً:

فإنا ومن يهدي القصائد نَحونا لَمستبضع[2] تَمرًا إلى أرض خيبرا

تلك الحادثة كانت إرهاصًا بإشراق نور الإسلام في عيني " حسان " وقلبه، فلما هاجر الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة تسابق الناس إلى الدخول في الإسلام، وآخى الرسول – عليه السلام – بين المهاجرين والأنصار، ودخل "عثمان بن عفان" بيت "حسان" أخًا لـــ"أوس" أخيه عندئذ أصبحت الفرصة مهيئة لدخول "حسان" في الإسلام، فدخل وتبعته أمه في الدخول.

وصار "حسان" بعد ذلك شاعر الإسلام، يدافع عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وعن الدين الجديد.

ومما دافع به عن النبي – عليه السلام – رده على "أبي سفيان" عندما هجا الرسول، قال "حسان" – مما قال -:

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

---

(1) **شرف**: مكان مرتفع. **البرقاء**: أنثى الأبرق وهو كل شيء اختلط فيه سواد ببياض.

(2) **مستبضع**: جعل الشيء بضاعة.

بأن سيوفنا تركتك عبدًا وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفء فشرُّكما لِخيركما الفداء

ولَمّا بكى "عبد الله بن الزبعري" قتلى بدر من قريش ليهيجها ضد المسلمين في قصيدته ذات المطلع الذي يقول:

ماذا على بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرامُ

رد عليه "حسان " بقصيدة منها:

ماذا بكيت به الذين تتابعوا هلا ذكرت مكارم الأقوامِ
وذكرت منا ماجدا ذا همة سمح الخلائق صادق الإقدامِ
أعني النبي أخا المكارم والندى وأبر من يولي على الأقسامِ

ويبكيهم أيضًا "كعب بن الأشرف" اليهودي، وكان مما قال:

طحنت رحا بدر لِمهلك أهله ولِمثل بدر تستهل الأدمعُ

فرد عليه "حسان" بقوله:

ولقد رأيت ببطن بدر منهمُ قتلى تسح لها العيون وتدمع
فابكي فقد أبكيت عبدًا راضعًا شبه الكليب إلى الكليبة يتبعُ

ولقد شفا الرحمن منا سيدًا وأهان قومًا قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم من قلبه شغف يظل لِخوفه يتصدعُ

وهكذا لم يترك "حسان" فرصة للأعداء يتطاولون فيها على الإسلام إلا رد فأفحم وأسكت.

وهب "حسان" نفسه لله منذ أسلم، فنال حب الرسول – عليه السلام – وثقته، بعد أن حظى بعطفه، فيجعله حامي الدعوة الإسلامية، فانقطع "حسان" لمهمته الجديدة، ووقف نفسه للدفاع عن دين الله والجهاد في سبيله، يقول "أبو الفرج الأصفهاني" : لَما كان عام الأحزاب، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، قال الرسول – عليه السلام – : من يحمي أعراض المسلمين؟ فقام "عبد الله بن رواحة"، وقال: أنا يا رسول الله، فقال له: "أنت حسن الشِّعر"؟ فقال "حسان" : أنا يا رسول الله، فقال: **"نعم، اهجهم أنت؛ فإنه سيعينك عليهم روح القدس"** وقد نصره الله على أعداء الإسلام، وبخاصة تلك الوفود التي كانت تفد على الرسول وتتحداه وتهجوه وتهجو الإسلام والمسلمين، من ذلك أن وفدًا من "بني تميم" وفد على الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفهيم "الأقرع بن حابس" و"الزبرقان بن بدر" و"قيس بن عاصم" فقام شاعرهم "الزبرقان" وأنشد قوله:

نحن الكرام فلا حَيٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البِيَعُ

تلك المكارم حزناها مقارعة إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتبعُ

وننصر الناس تأتينا سراقم من كل أوب فتمضي ثم تتبعُ

إلى آخر ما قال، وكان "حسان" غائبًا، فبعث الرسول – عليه السلام – في طلبه، فلما حضر قال له النبي : **"أجب يا حسان"** فقال على نفس الوزن والروي مرتجلاً:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سننًا لله تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإلهِ وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوَّهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدعُ
إن كان في الناس سباقون بعدهمُ ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطمعون ولا يزري بهم طمعُ
ولا يضنون عن جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبعُ
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزعُ
أكرم بقوم رسول الله قائدهم ... إذا تفرقت الأهواء والشِّيَعُ

إلى آخر الأبيات، فقال "الأقرع بن حابس" : والله إن هذا الرجل لمؤتى له، والله لشاعره أشعر من شاعرنا، ولخطيبه أخطب من خطيبنا، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا. ثم قال: أعطني يا محمد . فأعطاه عليه السلام يده ثم قال الأقرع: "اللهم إنه سيد الناس" ثم أسلم الوفد معه.

ولَما توفي الرسول – عليه السلام – حزن عليه "حسان" حزنًا شديدًا، فكان مما قال:

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمدِ

جزعًا على المهدي أصبح ثاويا يا خير من وطئ الحصى لا تبعدِ

وجهي يقيك الترب لهفي ليتني غيبت قبلك في بقيع الغرقدِ

بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهتدي

فظللت بعد وفاته متبلدا متلددًا يا ليتني لم أولدِ

أأقيم بعدك بالمدينة بينهم؟ يا ليتني صبحت سم الأسود

أوحل أمر الله فينا عاجلا في روحة في يومنا أو في غدِ

فتقوم ساعتنا فنلقى طيبًا محضا ضرائبه كريم المحتدِ

وفي آخر أيام "حسان" كف بصره، وتوفي في خلافة معاوية سنة (54) هجرية، بعد أن عاش مائة وعشرين عامًا في الجاهلية والإسلام، وقد انقرض ولده فلم يبق له عقب.

منزلته الأدبية:

إذا عرفنا أن "حسان بن ثابت" كان يضطرب في أسرة نبغ فيها الخطباء والشعراء تبين لنا أن كان يتمتع بمنزلة أدبية رفيعة أعانه على تبوئها أن كان خاله "مسلمة بن مخلّد بن الصامت" من خطباء الأنصار المبرزين ، كما كان جده "المنذر" كذلك، أيضًا كانت أخته "خولة" شاعرة، ومما قالته في التشبيب بـــ "عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي":

يا خليلي نابني سهدي		لم تنم عيني و لم تكد

كما كان ابنه "عبد الرحمن" شاعرًا، وهو ابن "سيرين" أخت "مارية" أم إبراهيم ابن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وقد كان لـــ "عبد الرحمن" ولد شاعر اسمه "سعيد".

كذلك كانت لـــ "حسان" بنت شاعرة كانت تشارك والدها قرض الشعر، ذكر ابن "قتيبة" ذلك على النحو التالي:

"أرق حسان ذات ليلة فعن له الشعر" فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثثنا أصولـــها

ثم أجبل فلم يجد شيئًا فقالت له بنته: كأنك قد أجبلت يا أبه؟ قال: أجل، قالت: فهل لك أن أجيز عنك؟ قال: وهل عندكِ ذلك؟ قالت: نعم. قال: فافعلي، فقالت:

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا كرام يُعاطون العشيرة سولـــها

فحمي الشيخ فقال:

وقافية مثل السنان رُزِئتها تناولت من جو السماء نزولها

فقالت:

يراها الذي لا يُنطَق الشعر عنده ويعجز عن أمثالـــها أن يقولها

فقال حسان: لا أقول بيت شعر وأنت حية، قالت: أوَ أؤمنك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا أقول بيت شعر ما دمت حيًا[1].

(1) الشعر والشعراء جـــ 1 ص 313.

وقد استشعر "حسان" نفسه أنه قد صارت له مترلة أدبية مرموقة تمكن له اختراق حجب الملوك والحكام وتجعله نجمًا يدور في فلك كبار الشعراء، ومما يؤكد ذلك عمليًا نزوحه إلى الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق، كيف لا وقد صار له في مجال الشعر سن وناب، وأصبح الشعر من حسان المميزة لشخصه ولذلك نراه يقول:

لكل أناس مِيسم يعرفونه ومِيسمنا فينا القوافي الأوابد

والخبر التالي يكشف عن مترلة "حسان" الأدبية التي ترسخت له أثناء وبعد هذا الخبر، يقول هذا الخبر: إن "حسان بن ثابت" ورد على "جبلة بن الأيهم" الغساني ومدحه فأذن له بالجلوس بين يديه، وكان "النابغة" جليسًا لـــ "جبلة" – وحسان يعرفه – والجليس الآخر الذي لا يعرفه "حسان" هو "علقمة ابن عَبَدة" وقد خيره "جبلة" في أن يلقي شعره أولاً ثم يسمع منهما ثانيًا، أو يسمع منهما أولاً، فتخير "حسان" الأخيرة، فأنشد النابغة:

كِليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

قال "حسان" فذهب نصفي، ثم أنشد "علقمة":

طحابك قلب في الحسان طروب بُعيد الشباب عصر َحانَ مشيبُ

فقال "حسان" ذهب نصفي الآخر، وظهر الخوف على "حسان" حينئذ خيره "جبلة" في أن ينشد أو لا ينشد، فاستجمع "حسان" أمره وتماسك، وقال: بل أنشد، فأنشد:

لله در عصابة نادمتهم　　　　يومًا بجلق في الزمان الأول

أولاد جفته حول قبر أبيهم　　　　قبرِ ابن مارية الكريمِ الْمُفضلِ

فقال له "جبلة" – معجبًا – : ادْنُه، ادْنُه، لعمري ما أنت بدونهما، ثم أمر لـــ "حسان" بثلاثمائة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد، وقال له: هذا لك عندنا في كل عام.

وقد تعرض "حسان" لمثل هذا الامتحان العسير وعلى يد هذين الشاعرين في ديار الغساسنة وقد وفد على "عمرو بن الحارث" وعنده ذلك الشاعران فذكر "عمرو" لـــ "حسان" قرابته ونسبه في غسان وخاف عليه من السقوط والهزيمة فقال له: يا ابن الفريعة، ارجع فإني باعث إليك بصلة سنية ولا أحتاج إلى الشعر فإني أخاف عليك هذين السَّبْعَين أن يغلباك ويفضحاك، ففضيحتك فضيحتي، وأنت والله لا تحسن أن تقول:

رقاق النعال طيب حُجُزاتُهم يحيون بالريحان يوم السباسب[1]

فأصر "حسان" على الإنشاد وقال:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبُضيع فحومل[2]

فأعجب "عمرو" أيما إعجاب وأخذ يزحف من موضعه رضى بما صنع، وأنشد "حسان" وقال: هذا وأبيك الشعر لا ما يعللاني به منذ اليوم، هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح، هات له يا غلام ألف دينار مرجوحة — والدينار المرجوح بعشرة دنانير — ثم قال "عمرو": لك عليَّ في كل سنة مثلها.

أما شعره في المناذرة فلم نر منه ما ورد على صورة مدائحه للغساسنة، على الرغم من أن التاريخ يسجل وفود "حسان" على "النعمان بن المنذر" ومدحه إياه ورضاه عنه وإتحافه بالجوائز السنية بعد أن اتخذه سميرًا ونديمًا وأنيسًا وجليسًا إبان انقطاع "النابغة" عن "النعمان"، فهل يعقل أن يصل إلى تلك المنـــزلة الأدبية دون أن يكون له شعر مستقبل بمدائح المناذرة؟ حقًا ورد له شعر في مدحهم ولكنه مختلط بأغراض أخرى، وكأن "حسان" لم يحقق لديهم ما كان

---

(1) **الحجزات**: جمع حجزة وهي معقد الإزار، ويكنى بها عن العفة. **السباسب**: عيد الشعانين عند النصارى.

(2) الجوابي والبضيع وحومل : أماكن بالشام.

يؤمل، والحقيقة أنه وصل إلى ما يريد، وكان بالإمكان أن يطول مقامه بين يدي "النعمان بن المنذر" لولا عودة النابغة إلى بلاط النعمان واعتذاره إليه وقبول معذرته، و"حسان" يعرف تمكن "النابغة" من قلب "النعمان" فآثر العود وهو متوهج البريق قبل أن يخبو ضوؤه وينحسر شعاعه.

ولعل طول العمر الذي رزقه "حسان" كان واحدًا من الأسباب التي حققت له تلك المنزلة الرفيعة في الشعر، ولا شك أنه اغترف من النبع الجاهلي فعلّ ونهل، ثم استمد من النبع الجديد الفياض، فكان شعره على قسمين: قسم تسري فيه روح الجاهلية، وقسم تسري فيه روح الإسلام، مما جعل النقاد يتكاثرون حوله ويدرسونه من منظور جاهلي وآخر إسلامي، ويوازنون بين النوعين، الأمر الذي دفعهم إلى الاعتراف بمنزلته ويشهدون له بالسبق والتقدم، وفي مقدمتهم: "أبو عمرو بن العلاء" و"الأصمعي" وغيرهما.

ومما يدل على عظمة منزلته الأدبية أيضًا شعوره بالتفوق الشعري، مما جعله يرفض رأي "النابغة" فيه حينما أنشده "حسان" بعض شعره وعلق عليه "النابغة" بقوله: "إنك شاعر" فأغضبه ذلك لأنه أحس استهانة "النابغة" بشعره، وكان الذي قلل من شأن شعر "حسان" في نظر النابغة هو قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطر من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرِّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

وقد علق "النابغة" على ذلك بقوله: "أضعفت فخرك، وأقللت جفانك، وفخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك".

وكان مما اغتاظ "حسانًا" أيضًا أن "النابغة" قال لـــ "الخنساء" بعد أن أنشده "الأعشى" رائعته:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

وأنشدته "الخنساء":

قذى بعينك أم بالعين عوارُ أم ذرفت مذ خلت من أهلها الدارُ

حينئذ قال لها "النابغة" : لولا أن أبا بصير – يعني الأعشى – سبقك لقلت : إنك أشعر من بالسوق .

فحمي "حسان" لذلك وغضب، ورأى في حكم "النابغة" إزراءً بشعره فاندفع مخاطبًا "النابغة" قائلاً: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك.

فقال "النابغة" : حيث تقول ماذا ؟ .

فقال : حيث أقول:

لنا الجفنات الغر ....

....　　　................................

فرد عليه النابغة بقوله: يا ابن أخي، إنك لا تحسن أن تقول:

فإنك كاليل الذي هو مدركي　　　وإن خلت أن المنتآي عنك واسعُ[1]

وقد كشف "النابغة" عما يريده من "حسان" في بيته الأول بقوله[2]: "يا ابن أخي على رسلِك؛ فقد أخطأت في هذا البيت في ستة مواضع، قال: فما هن يا عم؟.

قال: قلت: الجفنات، وهي أقل العدد ولو قلت: الجفان لكان أعم.

---

(1) تفوق "أنس بن زنيم الديلي" على "النابغة" وهو يعتذر إلى رسول الله – عليه السلام – مما كان قال فيهم "عمرو بن سالم الخزاعي" في قوله:

تعلم رسول الله أنك مدركي　　　وإن وعيدًا منك كالأخذ باليدِ

لأن معنى "عمرو" وزعه "النابغة" وهو يعتذر لـــ "النعمان بن المنذر" في بيتيه هما:

فإنك كالليل الذي هو مدركي　　　وإن خلت أن المنتآى عنك واسع

خطاطيف حُجن في حبال متينة　　　تَمُد بها أيدي المليك نوازع

فضلاً عن عمق المعنى لدى "عمرو".

(2) "جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد القرشي . تحقيق : علي محمد البجاوي – دار النهضة مصر ص 79.

وقلت: الغر، والغرة هي البياض اليسير في وجه الفرس، ولو قلت: البيض كان أعم.

وقلت: يلمعن، واللمع هو الضياء اليسير من بعيد، ولو قلت: يشرقن كان أعم.

وقلت: بالضحا، فكأنما أنتم تطعمون بالضحا ثم تنقطعون، ولو قلت: بالدجا كان أعم وأحسن.

وقلت: وأسيافنا وهي أول العدد، ولو قلت: سيوفنا كان أعم.

وقلت: تقطر الدما، والقطر إنما يكون كالدمعة تقطر من الحجر ومن غيره، ولو قلت: تسكب الدما كان أعم.

وحسب "حسان" من الفضل والإشادة أن اختاره أفصح العرب ليكون شاعر الدعوة الإسلامية، وأنه كان يحب الاستماع إلى شعره؛ فقد سأل عنه النبي – عليه السلام – في سفر قائلاً: **"أين حسان"**؟ قال "حسان": لبيك يا رسول الله وسعديك. قال – عليه السلام – له: **"احْدُ"**. فأخذ "حسان" ينشد، والنبي يصغي ويستمع ، فلما فرغ "حسان" من إنشاده قال – عليه السلام – : **"لهذا أشد عليهم من وقع النبل"**.

تعليق:

دافع بعض النحويين من أمثال الشيخ مصطفى الغلاييني – صاحب كتاب الدروس العربية – عن "حسان" فيما يتعلق بالجانب الصرفي فقال: "إذا قرن جمع القلة بما يصرفه إلى معنى الكثرة انصرف إليها، كأن تسبقه (ال) الدالة على تعريف الجنس، كقوله تعالى: **"وأُحْضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ"** أو يضاف إلى ما يدل على الكثرة كقوله سبحانه: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا قُوا أنفُسَكُمْ وأهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ"** ومن ذلك قول "حسان بن ثابت":

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فإضافة الأسياف إليهم وهي من جموع القلة صرفتها إلى الكثرة، وأما الجفنات فهي تستعمل للقلة والكثرة؛ لأنها جمع سالم، وهي هنا أيضًا للكثرة على رأي من يقول: إن الجمع السالم للكثرة لاقترانها بلام التعريف الجنسية. وبهذا تعلم أن الاعتراض على "حسان" في استعماله (الجفنات) بدل "الجفان" و"الأسياف" موضع "السيوف" – ساقط وأن القصة المروية في هذا الموضوع التي أبطالها "النابغة" و"حسان" و"الخنساء" و"الأعشى" مفتعلة؛ لأن هؤلاء أجلّ من أن يقعوا في مثل هذه الحمأة[1].

وقد انتصر "قدامة بن جعفر" لـــ "حسان" في كتابه (نقد الشعر)[1] بما يخص البيت الأول؛ حيث يقول: "فإن النابغة على ما حكي عنه لم يرد من حسان إلا الإفراط والغلو، بتصيير مكان كل معنى وضعه ما هو فوقه وزائد عليه، وعلى أن من أنعم[2] النظر علم أن هذا الرد على حسان من النابغة كان أو

[1] الجزء الثاني ص 29.

[1] تحقيق وتعليق الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجى ص 93.

[2] مع كلمة "النظر" يقال: "أنعم" ، ومع كلمة "الفكر" يقال: "أمعن".

من غيره خطأ، وأن حسان مصيب ؛ إذ كانت مطابقة المعنى بالحق في يده وكان الرد عليه عادلاً عن الصواب إلى غيره.

فمن ذلك أن حسانًا لم يرد بقوله : الغر" أن يجعل الجفان بيضًا، فإذا قصر عن تصيير جميعها بيضًا نقص ما أراده، لكنه أراد بقوله : "الغر" المشهورات ، كما يقال "يوم أعز" و"يد غراء" وليس يراد البياض في شيء من ذلك، بل يراد الشهرة والنباهة.

وأما قول "النابغة" في "يلمعن بالضحى" وأنه لو قال "بالدجى" لكان أحسن من قوله : "بالضحى" ؛ إذ كل شيء يلمع بالضحى، فهذا خلاف الحق وعكس الواجب؛ لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد البياض، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا مقابلة لأبصارنا دائمًا تلمع بالليل ويقل لمعانها بالنهار حتى تختفي، وكذلك السرج والمصابيح ينقص نورها كلما أضحى النهار.

فأما قول "النابغة" أو من قال : إن قوله – يعني حسانًا – في السيوف : "يجرين" خير من قوله "يقطرن" لأن الجري أكثر من القطر فلم يرد حسان الكثرة، وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الناس ويعتادونه من وصف الشجاع الباسل

والبطل الفاتك بأن يقولوا: سيفه يقطر دمًا، و لم يسمع سيفه يجري دمًا، ولعله لو قال: يجرين دمًا يعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب بوصفه.

أما البيت الثاني فقد جرى فيه "حسان" على الإفراط والغلو ؛ إذ قبيلته لم تلد العنقاء وابني محرق ؛ إذ "العنقاء" هو ثعلبة بن عمرو بن عامر أصل الأوس والخزرج، ومحرق هو أخوه الحارث وقد بالغ حسان بأن جعلهما أعرق من أصلها بحيث صارا أصولاً في العراقة والمجادة نسي بهما الناس أباءهما وأجدادهما في تلك العراقة والمجادة وقد توقف فخر حسان عند ذكر العنقاء ومحرق لأن العنقاء أصل الأوس والخزرج أكبر قبيلتين في المدينة، و لم يرد أن يتجاوز ذلك إلى ما بعدهما من آباء وأجداد حتى لا يضل المستمع في سراديب الغيب البعيدة مكتفيًا بالأصول القريبة هذه، ثم يضع حسان النهاية التي يريد أن يصل إليها وهي عراقة أصوله رامزًا إليها بقوله: (فأكرم بنا خالاً) كما يشير إلى علاقة قبيلته بقوله : "وأكرم بنا ابنما).

حسان يتفاءل بفتح مكة

النص الذي بين يدي الدراسة قاله حسان تبشيرًا بفتح مكة، وتهديدًا لكفار قريش وتهكمًا بأبي سفيان وتوعدًا له ولأمثاله من المتغطرسين.

وإليكم بعضًا من أبيات القصيدة:

**عدمنا خيلنا إن لم تروها		تُثير النّقع موعدُها كَداءُ**

**يُبارين الأسنة مُصْعدات		على أكتافها الأسَلُ الظَماءُ**

**تظلُّ جيادُنا متمطِّراتٍ		تُلَطِّمُهُن بالْخُمُرِ النساءُ**

**فإما تُعرضوا عنا اعتمرنا		وكان الفتحُ وانكشف الغطاءُ**

**وإلا فاصبروا لـــجلاد يوم		يُعزُّ اللهُ فيه من يشاءُ**

المفردات:

عدمنا خيلنا: دعاء بهلاك الخيل إن لم تحرز النصر. **تثير النقع:** تهيج الغبار. **كداء:** مكان بأعلى مكة دخلها منه النبي عند فتحها. **يُبارين:** يسابقن. **الأسنة:** جمع سنان وهو نصل الرمح. **مصعدات:** صاعدات في طريق مكة. **الأسل:** جمع أسلة وهي الرمح. **الظماء:** المتعطشة لدماء الأعداء. **متمطرات:**

مسرعات **تلطمهن:** تضربن وجوه الخيل. **الخمر:** جمع خِمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها أو وجهها. **إما:** أصلها: "إن" الشرطية مدغمة في "ما" الزائدة. **تعرضوا:** تتركونا ندخل. **اعتمرنا:** أدينا العمرة. **وكان الفتح:** تم فتح مكة، وكان هنا لا تحتاج إلى خبر فهي تامة. **انكشف الغطاء:** يقصد ظهر الحق. **جِلاد:** قتال.

المعنى:

دعا الشاعر بالهلاك على خيول المسلمين إن لم يتحقق بها النصر على المشركين، تلك الخيول سوف تثير بسنابكها غبار المعركة في كداء، هذه الخيول سوف تسرع إلى العدو وتسابق الرماح العطشى إلى دماء الأعداء في انطلاقها وهي متجهة صوب مكة، وأنها لن تتوقف عن عَدْوِها وهي متجهة إلى البيت الحرام، وسوف يعجز الرجال عن صدها فتهرب ، وتخرج النساء محاولة رد الخيول بلطمها بأغطية الرأس والوجه، ومع ذلك فلن تتوقف الخيول عن تحقيق أهدافها، فإن خليتم لها الطريق يا كفار مكة دخلنا البيت، وأدينا العمرة دون أن نصيب أحدًا بأذى، حينئذ يشرق وجه الحق ويندحر الباطل، وإن تعرضتم لنا ، ومنعتمونا من دخول البيت، فسوف نأتيكم بجنود لا قِبَلَ لكم بها في يوم ينصرنا الله فيه عليكم ويحقق وعده لعباده المؤمنين.

التحليل:

تخيل الشاعر معركة حامية الوطيس بين المسلمين والكفار، قوامها الخيول المسرعة النشيطة، وتراب كداء، والأسنة العطشى، والرجال الجبناء، والنساء اللاتي يضربن وجوه الخيل بأغطية الرءوس والوجوه، ثم نصر المسلمين، ودحره الكافرين، وبذلك جمع بين القوة المادية، والقوة المعنوية التي تحقق النصر في أية معركة، تلك المعركة التي صنعها خيال الإيمان في "حسان" كانت إرهاصًا بفتح مكة على المسلمين الذي تحقق فيما بعد، ولذلك كان الرسول – عليه السلام – يحب أن يستمع بين الحين والآخر إلى هذه القصيدة بعد الفتح؛ لأنها كانت فألاً حسنًا للمسلمين، وقد كان الشاعر موفقًا في رسم تلك الصورة الكلية لتلك المعركة الخيالية، حيث أبرز عناصر الصورة الرئيسية واضحة جلية.

ونستطيع أن نلمس عنصر الحماسة لخوض تلك المعركة وتحقيق النصر فيها؛ حيث دعا بفقد مظهر العزة والمنعة – المتمثل في الخيل – إن تخلت عن نصرة الإسلام، وأي مسلم لا يتمنى فقد عزته وكرامته، ومن هنا فقد استخدم الشاعر الأسلوب الخبري لفظًا، الإنشائي معنى، ليرمز به إلى العزم والتصميم والإصرار على تحقيق الانتصار.

على أن الشاعر حرص على إظهار نوعية تلك الخيول، وهي الخيول المسرعة النشيطة، دون غيرها، ليبين أن من عناصر النصر استعمال خيول تنهب الأرض نهبًا، وتطويها طيًا، وتلك السرعة من شأنها أن تثير الغبار، فتقذف الرعب في قلوب الأعداء بذلك، تلك الخيول تشارك المسلمين مشاعرهم الدافقة، فتحاول أن تسابق الرماح إلى هدفها المنشود، كذلك الرماح هي الأخرى تشعر بذلك الشعور الفياض، فيشتد ظمؤها لدماء الأعداء، أما رجال الأعداء فهم جبناء أخساء، أما أنهم جبناء فلأنهم هربوا من الميدان وأخلوه لنسائهم خوفًا وهلعًا، وهذه خسة ما بعدها خسة، وخسة أخرى هي ترك النساء للهوان مما تنكشف معه رءوسهن ووجوهن.

وهنا تشتجر العواطف فنرى الشاعر يتردد بين عاطفة الغضب والرضى: عاطفة الغضب التي سولت له أن يدعو على الخيول بالفقد والموت إن تخلفت عن

تحقيق ما يرجوه منها كرًا وفرًا وإقبالاً وإدبارًا، وعاطفة الرضى التي جعلته يتخيل الخيول وقد تحمست لخوض المعركة وحملت بين جوانحها مشاعر الحماسة التي دفعتها إلى النشاط والسرعة التي يثار معها الغبار عاليًا حتى يغطي سماء المعركة وقد دفعتها السرعة إلى مسابقة الأسنة، وتظل في السرعة حتى يصاب الرجال بالهلع فيتركوا النساء في الميدان بعد أن تجردوا من الحمية العربية التي تدفعهم إلى حماية النساء.

وقد ساعدت العاطفة – بشقيها – على تخيل صورتين متضادتين للخيول، الصورة الأولى نلمحها وهي هاربة يتبعها الهلاك آنى هربت ويلاقيها الفناء أيان ولت وجهها، والصورة الثانية نلحظها وهي تحقق ما تخيله الشاعر وأراده وتمناه منها، ما بين سرعة تثير الغبار، وتسابق الرماح التي يطلقها الفرسان من فوق صهوات تلك الخيول، وصورة أخرى وهي تحمل الرماح الظمآى للارتواء من دماء الأعداء ، وصورة رابعة يؤكد بها الشاعر أن سرعتها تمتد في جوف الزمن فلا يصيبها كلال، وصورة خامسة متداخلة ما بين خيول تلطمها النساء بغطاء رءوسهن، وصورة النسوة وهن حاسرات الرءوس وقد تملكهن الفزع بعد أن فقدن الحامي والنصير، فأخذن يضربن الخيول بأغطية الرءوس.

وهنا نلمح تدفق الحركة بين تلك الصور وفي ثناياها؛ إذ الصور كلها في الأبيات الثلاثة الأولى تغمرها الحركة، والحركة السريعة على وجه الخصوص.

كما أن البعد الزمني متوفر في تلك الصور؛ إذ إثارة النقع والتسابق مع الرماح، والاستمرار في السرعة والنشاط ، وفرار الأعداء مما استتبع دفاع النساء عن أنفسهم كل ذلك يتطلب زمنًا طويلاً.

كما أن البعد المكاني واضح في تلك الصور أيضًا؛ لأن الصور السابقة يلزمها مكان تتحقق فيه وتتوفر.

وإذا كان الشاعر قد خلع على الحيوان – المتمثل في الخيول – مشاعر الإنسان من إحساس بالمسئولية وشعور بتدفق الحماسة والغيرة فإنه قد خلع على الجماد – المتمثل في الرماح – صفة الغيرة والحماسة أيضًا، ومن هنا سوغ لنا أن نتصور الرماح وهي تسابق الخيول، كما سوغ لنا أن نتصورها عطشى لدماء الأعداء عطش الفرسان الذين يطلقون تلك الرماح.

وهنا يكون الشاعر قد وظف كلماته توظيفًا دقيقًا في رسم صورة بأبعادها وظلالها وسهل على أي رسام أن يلتقط خطوط لوحاته بيسر وسهولة ليتخذ منها لوحة دقيقة معبرة.

ولا ينسى الشاعر أن يظهر الإسلام في صورة مشرفة، فذكر أنه لا يشجع على الإيذاء ، ومع ذلك فإنه لا يسكت على الظلم والضلال، ولهذا طلب إليهم الصبر على القتال في يوم يعرفون أوله ولا يعرفون آخره، والواقع أنه لم يطلب منهم صبرًا حقيقيًا، وإنما هددهم ووعدهم بالعجز عن المقاومة في أسلوبه الإنشائي في قوله: "فصبروا".

على أن الشاعر كان رائعًا وهو يحرك الأذهان لتوازن بين الفريقين، ولتقف على أيهما يستحق تأييد الله، وأيهما يستحق لعنته، وذلك في قوله : "من يشاء" .

كما اتضح أثر الثقافة الإسلامية في قوله: "اعتمرنا" وقوله: "يعز الله من يشاء".

وجبريل أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كِفَاءُ
وقال اللهُ قد أرسلتُ عبدًا يقولُ الحق إنْ نفع البلاءُ
شَهِدتُ به وقومي صَدّقُوه فقلتم لا نقومُ ولا نشاءُ
وقال اللهُ قد يسّرت جندًا هُمُ الأنصارُ عُرْضتُها اللقاءُ
لنا في كل يوم من مَعَدٍّ قتالُ أو سِبابُ أو هِجَاءُ
فنُحكِم بالقوافي مَن هَجَونا ونضربُ حين تختلطُ الدماءُ

المفردات:

جبريل: ملك الوحي. **أمين الله**: المؤتمن على وحيه وتبليغه إلى الرسل. **فينا**: معنا. **روح القدس**: جبريل. **كِفاء**: نظير. **عبدًا**: هو الرسول – محمد صلى الله عليه وسلم – . **البلاء**: الاختبار، ويقصد بقوله: **"إن نفع البلاء"** أن المؤمن هو الذي ينجح في هذا الاختبار، مشيرًا إلى أن الأنصار آمنوا بالرسول فنجحوا، وأن قريشًا لم تؤمن بالرسول ففشلت. **شهدت به**: آمنت به رسولاً. **لا نقوم ولا نشاء**: المراد لا نؤمن ولا نريد الإيمان. **يسرت جندًا**: أعددهم وسهلت لهم طريق النصر. **الأنصار**: المسلمون من أهل المدينة. **عرضتها اللقاء**: قصدها لقاء

العدو وقهره. **معد:** هو معد بن عدنان الجد الأعلى لعرب الشمال، والمراد هنا أبناؤه، ومنهم قريش أهل مكة. **سباب:** شتم. **هجاء:** ذم. **نحكم:** المراد نمنع ونرد، وأصلها من حكمة الحصان وهي حديدة اللجام. **القوافي:** جمع قافية، وهي أواخر الأبيات والمراد الأشعار.

المعنى:

بعد أن توعد الشاعر الكفار في نهاية أبيات المقطع الأول وهددهم ، وبين أن الله سينصرهم لأنهم على الحق، أشار في البيت الأول أن الله سينصر المسلمين بعدد من ملائكته، وفي مقدمتهم جبريل أمين الوحي الذي يبلغه عن ربه لنبيه — صلى الله عليه وسلم – ، هذا الأمين ليس له مثيل في ملتهم الضالة، ثم يشير الشاعر إلى أنهم يستحقون النصر؛ لأنهم نجحوا في الاختبار يوم أن أبلغهم الرسول الدعوة فاستجابوا له، بينما فشلت قريش في هذا الاختبار، وقد شهد الشاعر وقومه بما جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصدقوه، في الوقت الذي لازمت فيه قريش عنادها وإصرارها على الكفر، وقد هيأ الله من الأنصار جنودًا هدفهم الأسمى هو الجهاد في سبيل الله وقهر أعدائه، هؤلاء الجنود صُبُر عند اللقاء مع قريش التي لا تفتأ تعتدي عليهم بين الحين والآخر، وتعيب على المسلمين دينهم الجديد، وها نحن أولاء لا نفر من أي ميدان: ففي مجال الهجاء

هجوهم بشعر هو أشد عليهم من وقع السهام، وفي مجال الحرب لا نتردد في إشعالها حربًا ضروسًا تأكل الأخضر واليابس، وتجري فيها الدماء أنهارًا.

التحليل:

في هذه الأبيات صدى للروح الإسلامي الجديد، متمثلاً في التفاؤل بنصر الله لعباده المؤمنين، ومتمثلاً في تكرار قوله: "وقال الله"، وقوله: "يقول الحق"، و"شهدت به"، و"قومي صدقوه". كما أن البيت الخامس يشهد بأن المسلمين لم يكونوا معتدين على الأعداء في يوم من الأيام، بل إنهم كانوا يعانون الأذى والعنت منهم، نلمس ذلك في تقديم "لنا" وما توحي به من توجيه العدوان إلى الأنصار بخاصة؛ لأنهم نصروا الرسول – عليه السلام – كما أن توالي العطف في قوله: "قتال أو سباب أو هجاء" يرمز إلى تعدد ألوان هذا العدوان، فهم يحاربون المسلمين حربًا ساخنة وحربًا نفسية باردة، وإن كان الشاعر في هذا

البيت قد جانبه التوفيق في التعبير بكلمة "معد" رمزًا لقريش ومنها الرسول والمهاجرين، إلا إذا أطلق الشاعر الكل وأراد الجزء، ومع ذلك يبقى التعبير غير دقيق، وفي البيت الثاني نرى الشاعر يتهكم بالكفار؛ لأنهم حجبوا عقولهم عن التفكير الصائب، فكان مآلهم الفشل وعدم الاهتداء إلى الطريق المستقيم، وهذا ما أوحى به قوله: "إن نفع البلاء". وقد أسفر الشاعر عن تلك الموازنة بين نجاح المسلمين وفشل الكفار في البيت، وعزاها إلى أنهم اصروا على الكفر واستكبروا استكبارًا.

هذا ونلاحظ في البيت الأول أن الشاعر ركز صورة من سيعينون المسلمين بحيث يتحقق بهم النصر ركزها في جبريل – عليه السلام – إشارة إلى أنه سيقود عددًا من الملائكة يقاتل مع المسلمين هذا التركيز يثير فينا تقدير الشاعر لفطانة المتلقين وأن جبريل لن يحارب وحده في المعركة، كما أنه لم يصوره جنديًا فحسب، بل صوره أمينًا لتقرير صفة الأمانة في الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتثبيتها في الأذهان؛ إذ لا يبلغ الأمين إلا الأمين، مما يرمز به الشاعر إلى وجوب الإيمان بذلك الرسول الأمين، بل ربما يثير فينا عاطفة السخرية بهم؛ إذ كيف يعترفون بأمانة الرسول – عليه السلام – ثم يعادونه وينكرون ما جاء به. وفي البيت الثاني نلمح صورة منظورة على نقيض صورة

أخرى غائبة، فالصورة المنظورة هي نجاح المؤمنين في الاختبار يوم أن عرض عليهم الرسول الدعوة فاستجابوا له، أما الصورة الغائبة فتبدو في فشل قريش في هذا الاختبار. هاتان الصورتان تتضحان تمام الاتضاح في البيت الثالث وكأنه ترجمة للصورتين معًا. ثم تشرق صورة الأنصار حينما صورهم الشاعر في أحلى صور الإيمان وهم يجعلون من الجهاد هدفًا أسمى وغاية أنبل.

وتتابع الصور فنرى المسلمين في صورة من ابتلي من قريش بألوان متعددة من الابتلاء، ويضع البيت الأخير نهاية لذلك الابتلاء بأن صور الشاعر المسلمين في صورتين كل منهما تدل على القوة التي لا تعرف الضعف؛ إذ الصورة الأولى تشير إلى إذلال الكفار بهجاء المسلمين لهم هجاء مقذعًا ينكمشون به أمامهم في السلم، أما الصورة الأخرى فهي تشير أيضًا إلى إذلالهم بهزيمتهم في ميدان الحرب والنزال.

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نَخْب هواءُ
بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماءُ
هجوت محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولستَ به بكفء ... فشركما لخيركما الفداءُ
هجوت مباركًا برًا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاءُ

أمن يهجو رسول الله منكم　ويمدحه وينصره سواءُ؟

فإن أبي ووالده وعرضي　لعرض محمدٍ منكم وقاءُ

المفردات:

ألا: أداة يستفتح بها للتنبيه على أهمية ما بعدها والحث عليه. **المجوف والنخب**: الجبان الشديد الخوف حيث لا قلب له. **هواء**: فارغ لا يعي شيئًا، والجبان أيضًا. **عبدًا**: ذليلاً. **عبد الدار**: بطن من بطون قريش كان لهم في الجاهلية مترلة عظيمة. **الإماء**: جمع أمة وهي من فقدت حريتها، ويقصد بها هنا نساء عبد الدار تهكمًا بسيادة نساء عبد الدار على الرجال، ومما قيل في ذلك أن لواء المشركين في غزوة أحد كانت تحمله إحدى إماء عبد الدار بعد أن كثر عدد قتلاهم. **هجاه**: ذمه وعابه بما فيه أو بما ليس فيه، والهجو هنا للرسول بما ليس فيه حيث قال عنه الكفار : إنه ساحر ومجنون وبه مس من الجن، وإنه كاهن وشاعر وما به شيء من ذلك. **الكفء**: النظير والمثيل والشبيه. **الفداء**: ما يفتدى به. **مباركًا**: ميمونًا طاهرًا. **برًا**: عطوفًا شفيقًا كثير الإحسان خاصة لوالديه. **حنيفًا**: صحيح العبادة ثابت على إسلامه. **شيمته**: خلقه وطبعه. **الوفاء**: حفظ الحق

لأصحابه والبر بهم وأداء الوعد والعهد. **العرض:** البدن والنفس وما تجب حمايته – ولا يقصد به هنا ما يتعلق بالشرف - . **وقاء:** حفظ وحماية.

المعنى:

يخاطب الشاعر إنسانًا مُتخيلاً جرده من نفسه ويطلب إليه أن يبلغ "أبا سفيان" ابن حرب عنه رسالة شفهية تحمل السخرية والاستهزاء به والتعالي عليه، كاشفًا في تلك الرسالة حقيقة شخصية "أبي سفيان" ونفسيته وأنه ليس شيئًا مذكورًا ، وأنه يوم يلتقي الجمعان ستذله سيوف المسلمين بعد أن تقتل منهم من تقتل، وتجرح منهم من تجرح، ويؤسر منهم من يؤسر، ثم يفضحه بشيء مذل مهين وهو أن النسوة في بني عبد الدار لهم السيادة على الرجال مما يتنافى وشهامة العربي ورجولته، هذا فيما يتعلق بالموقف العسكري، أما موقف "حسان" من "أبي سفيان" في السلم فهو الدفاع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يوم كان "أبو سفيان" يهجو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويسلط عليه لسانه الحاد ويسخر به في بذاءة ووقاحة ، ثم يغيظه بأنه سينال رضى الله وثوابه بالدفاع عن نبيه – عليه السلام - ، ثم يشدد "حسان " النكير على "ابي سفيان" لأنه هجا من ليس له بكفء أو مثيل أو ضريب، وسوف يكون هذا الهاجي المتعالي المتعجرف المتغطرس فداء لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم يعنفه

مرة أخرى بأنه هجا شخصية غير عادية ما كان له — ولا لغيره — أن يهجوها، هو ذلك الرسول الذي باركه الله وأجرى الخير للإنسانية على يديه، وأنه كان بارًا رحيمًا عطوفًا شفيقًا، مستقيم العبادة مهدي إلى دين الفطرة وهو دين الإسلام الذي هو دين أبيه "إبراهيم" أبي الأنبياء — عليهم جميعًا أفضل السلام وأتم التسليم — كما أنه تميز بالأمانة لدين ربه — وللناس أجمعين — وفيًا لهذا الدين ولهؤلاء الناس جميعًا، وكان حقًا على "أبي سفيان" أن يتدبر ذلك ويتخذ منه زاجرًا لنفسه فلا يهجو إلا من يستحق الهجاء، ثم يوضح له ما خفي عليه، وهو أنه لا يستوي الخبيث والطيب، ولو كان الخبيث معجبًا كثيرًا، ثم وضح له أن الذي يهجو رسول الله من المشركين لا يستوي في الدرجة والمترلة عند الله بمن يمدحه من المسلمين ويظهر محاسن أخلاقه وينصر دينه الذي جاء به، وأن الرسول — عليه السلام — بلغ في قلوب المسلمين درجة رفيعة تجعلهم يضحون من أجله بكل غال وثمين، وقد صرح بذلك في البيت الأخير وأعطى فيه "أبا سفيان" درسًا في المحبة والتضحية، فلم يكتف بتقديم نفسه فداء لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — بل قدم والده وجده فداء أيضًا للنبي — عليه السلام – .

التحليل:

نلاحظ على الشاعر في البيت الأول أنه يتعالى على "أبي سفيان" في كبرياء وتعاظم ليقتله غيظًا وقد ركب في تعاليه متن العظمة العظيمة ؛ حيث نراه يتأبى على مخاطبته ويجرد له من نفسه شخصية أمرها أن تبلغ أبا سفيان المتعالي المتعاظم بأنه لا شيء، ولا شيء على الإطلاق، وذلك من خلال الترادف الذي تحمله الشطرة الثانية من البيت، من هنا نلمح ثلاث صور في هذا البيت ، منها صورتان متقابلتان تتشكلان من الشاعر في عظمته و"أبي سفيان" في مهانته، وبينهما شخصية ثالثة صنعها خيال الشاعر، وهي صورة المبلِّغ عن الشاعر ورسوله إلى "أبي سفيان" ، ثم تتوالى صور التحقير لـ"أبي سفيان" حينما ينـزله الشاعر من عليائه، إلى الحضيض الأسفل، ويصيره عبدًا ذليلاً بعد أن كان أحد سادات قومه، ثم يضع صورة الذلة في إطار جديد، وجعل مصدر الذلة في كون

النساء صرن سادة والسادة عبيدًا، ثم يمعن في الإذلال عندما أسند الحكم والفصل للسيوف وليس للمقاتلين بالسيوف.

كما أنه تعمد أن يقتله غيظًا وكمدًا فلم يقل عنه : إنه سيصير أسيرًا، بل عبر بأقسى لفظ تنفر منه طباع البشر – ناهيك عن أنفة العربي – وهو لفظ عبد، ولا يصير العبد عبدًا إلا إذا مر بمرحلة الأسر ولم يتم فداؤه حينئذ يتحول إلى عبد، ومن هنا نرى لفظًا واحدًا يصنع صورة ممتدة في عمر الزمن، فضلاً عن إيحائها بكل معاني الذلة والمهانة.

ثم يصور الشاعر نفسه وقد تنـــزل من عليائه في صورة مناقضة لصورة "أبي سفيان" فبينما يهجو "أبو سفيان" رسول الله ويتبجح في ذلك، إذ بـــ"حسان" يقف له بالمرصاد ويدافع عن الرسول ويسجل ثواب هذا الدفاع من الله تعالى، وهنا نرى أنفسنا أمام صورتين متقابلتين إحداهما ظاهرة وهي صورة الثواب والأخرى خفية وهي صورة العقاب، أوحت بها الصورة الأولى بطريق التضاد.

ثم نلمح في البيت الرابع صورتين متناقضتين ؛ إحداهما للرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد وضعت صورته الشريفة في إطار الخير، والأخرى لـــ"أبي

سفيان" وقد وضعت صورته القبيحة في إطار الشر، وذلك بعد أن رأيناه يتعجب من هجاء "أبي سفيان" للرسول، وبينهما من البعد المعنوي ما بينهما.

ثم ينوع الشاعر في الصور التي رسمها للرسول – عليه السلام – فيضعها في أطر البركة والبر واستقامة العقيدة، والأمانة، والوفاء.

ويلجأ الشاعر إلى التعميم في الخطاب بعد أن كان قاصرًا على "أبي سفيان" فيملأ قلبه وقلوب قومه بالحسرة والندامة عندما يفقدهم كل مزية يتصورونها عند هجائهم للرسول، وفي الوقت نفسه يعطي نفسه ومن هو على شاكلته كل مزية بسبب دفاعهم عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

وتكتمل صورة الإغاظة والتنكيد بأن وضع "حسان" رسول الله في صورة المفتدى بالغالي والثمين فتولدت عنها صورة لـــ"أبي سفيان" وهو ذليل لا يجد من يفديه أو ينصره.

فإما تثقفن بنو لوى　　　جذيمةَ إن قتلهم شفاءُ

أولئك معشر نصروا علينا　　　ففي أظفارنا منهم دماءُ

وحِلفُ الحارث بن أبي ضرار　　　وحِلفُ قريظة منا براءُ

لساني صارم لا عيب فيه　　　وبحري لا تكدره الدِّلاءُ

المفردات:

تثقفن: تدركن وتظفرن. **لؤى**: أحد أجداد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإليه ينتسب القرشيون. **جذيمة**: حي من خزاعة كانوا يعادون المسلمين فغزاهم في السنة الخامسة من الهجرة، وجواب الشرط محذوف تقديره: فليتعظوا بهم. **شفاء**: راحة للقلوب. **أولئك**: إشارة إلى جذيمة. **نصروا علينا**: أعانوا أعداءنا وساعدوهم ضدنا. **في أظفارنا منهم دماءُ**: يقصد انتصرنا عليهم. **الحلف**: مجموعة من الناس تتحد وتتعاهد. **الحارث بن أبي ضرار**: أبو أم المؤمنين "جويرية" كان من أبرز جذيمة وأشدهم عداء للمسلمين قبل أن يسلم. **قريظة**: حي من اليهود، كانت يثرب موطنهم ولكن خيانتهم وغدرهم بالمسلمين أوقعهم في هزيمة نكراء على يد المسلمين. **صارم**: قاطع كالسيف في قوة تأثيره. **لا تكدره**: لا تعكره. **الدلاء**: جمع دلو، وهو ما يستقى به الماء.

المعنى:

يوجه الشاعر تهديدًا عامًا لقريش وأنصارها وأنهم سوف ينتصرون عليهم ويمزقونهم شر ممزق إن سدروا في طغيانهم، وإيذائهم للرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته ودينهم وسيكون في قتلهم شفاء لما في الصدور، كما انتصرنا على جذيمة انتصارًا ساحقًا شفى كل قلب؛ لأنهم قلبوا علينا القبائل وأعانوا علينا أعداءنا وأمدوهم بالقوة الروحية المادية.

ولو كانوا عقلاء لاتخذوا من ذلك عظة وعبرة تعصم دماءهم وأرواحهم من الهلاك، هؤلاء الأعداء لم يكونوا من قبيلة واحدة أو من مكان واحد، بل تفرقوا في القبائل وانتشروا في الأصقاع والنجوع والصحارى والحضر، وقد نصر الله رسوله والمؤمنين على هؤلاء الأحلاف على اختلاف منازعهم وقبائلهم ومواطنهم مثل حلف الحارث بن أبي ضرار، وحلف قريظة.

ثم يعود الشاعر لما سبق أن ذكره وهو قدرته على هجائهم وإذلالهم به إن هم استمروا في الهجاء والعداء، وأن أداة الهجاء فيه حادة مؤثرة، وهو في هجائه يمتاح من بحر متلاطم لا تستطيع الدلاء – على كثرتها – أن تعكره.

التحليل:

في البيت الأول نلمح صورة التحميس والاستثارة لقتال الأعداء حتى تستريح القلوب من أوجاعها التي سببها لها هؤلاء الكفرة الفجرة، وهو بذلك يعالج مرضا نفسيًا يصيب كل مسلم، ونرى جمال التعبير ينساب في صدر البيت الثاني حيث جعله تعليلاً لشفاء القلوب، ولبيان أن قتل جذيمة – وغيرها – لم يكن لغرض دنيوي أو لمجرد البطش والإيذاء، إنما هو رد اعتبار ، ورد على عدوان سابق.

الشطرة الثانية من البيت الثاني تعطي انطباعًا بمدى الكراهية لجذيمة ، وتصور حالة المسلمين النفسية حيال هؤلاء الأعداء وما تنطوي عليه من رغبة في الانتقام لكرامة الإسلام والمسلمين.

كما أن وسيلة الانتقام هنا لم تكن عادية ممثلة في السيوف وبقية أدوات الحرب المعتادة ولكنها كانت بالأظفار، وهنا نلمح صورة التشفي النفسي، فبعد أن أعمل المسلمون السيوف والرماح وما يحملون من أسلحة كانوا ينشبون أظفارهم في هؤلاء الأعداء حتى يقضوا على كل مقاومة قد تبدو منهم.

ثم تبلغ صورة التهديد قمتَها في البيت الأخير، حينما نرى الشاعر يهددهم بهجاء مقذع من لسان بريء من كل عيب، رمزًا لقوة تأثيره وقوة أثره الذي سيبقى على العصور نقطة سوداء وسُبة في جبينهم تعكر عليهم صفو حياتهم؛ إذ قد تطوى صفحات الهزائم، ولا تقرأ إلا بين الحين والحين في بعد زمني طويل، أما هجاء الشعر فإنه في كتاب مفتوح دائمًا، ولذلك فإن بعض الهجاء يكون أشد وأنكى أثرًا من السيوف، وهو لا يهجوهم بلسان سليط صارم دون أن يكون له فيه باع طويل، وسهم وافر، ويمده في هجائه بحر عميق من المعاني والأخيلة والأساليب لا تنفد مهما امتاح منها، وكلما استخرج منه المعاني والأساليب والأفكار والأخيلة فإنها تظل بكرًا لا تعرف الضعف أو ليونة الأساليب، ومن دقة التعبير أن الشاعر لم يكتف بوصف اللسان بالصرامة؛ خوفًا من أن تتحول الصرامة إلى خور وضعف فبرأه من العيب الذي يمكن أن يلحق به.

ومن جمال انتقاء الألفاظ أنه عبر بكلمة (بحر) دون كلة (بئر) — مع سلامة الوزن والمعنى — لأنه أراد أن يعبر عن قدرته على الاستمرار في الهجاء لزمن طويل دون أن ينفد مدد البحر؛ إذ البحر لا يحده النظر، بينما البئر محدود المكان ومحدود ما فيه، ومن السهل أن يتصور الإنسان جفافه.

كعب بن زهير

نشأته وشاعريته:

ولد "كعب بن زهير" في دوحة شعرية، تمتد جذورها من جده "أبي سلمى" إلى حفيده "العوام" الذي ورث الشعر – هو الآخر – عن أبيه "عقبة"، وقد ضمت تلك الدوحة والد "زهير" وعمتيه: "سلمى"، و"الخنساء"، وخال أبيه "بشامة بن الغدير"، وابني عمته: "تماضر" – الخنساء – وأخاها "صخرًا"، وابني بنته –سلمى – : "العوثبان" و"قريض"، كما كان أخوه "بجير" شاعرًا.

ويلاحظ أن تلك الدوحة كانت متنوعة الغصون والأزهار؛ حيث لم يقتصر على من يتصل بـــ "كعب" من الناحية العرقية، بل امتدت الفروع إلى خال أبيه، وابني عمته، وابني بنته.

فلا عجب أن يرضع "كعب" أفاويق الشعر صغيرًا، ويرويه وينظمه كبيرًا، محلقًا في سماء الفن والإبداع، خاصة إذا عرفنا أن أباه لمس فيه موهبة الشعر، فعمل على صقلها منذ الصغر بالتهذيب والتدريب.

ولعل عظمة "كعب" في الشعر ترتد إلى أمرين: الموهبة الأصيلة، وحرص والده على أن يكون شعره ملء السمع والبصر ينشده بين الناس، ومن هنا نراه يمنعه من قرض الشعر والسباحة في بحره الهادر حتى لا تبتلعه الأمواج العاتية، وقد وصل الأمر بوالده أن ضربه وحبسه ؛ لأنه حاول قرض الشعر، إلا أن ذلك كان يفجر فيه طاقات شعرية لم تتوافر له من قبل الضرب والحبس، وظل يعرض عليه جيد الشعر ليحفظه ويرويه ويصقل موهبته، ومع ذلك لم يتوقف "كعب" عن قرض الشعر، فما كان من والده إلا أن سلم، وسمح له بقرضه، بعد أن نجح في اختباره.

وبذلك وضع "زهير" ابنه "كعبًا" على الطريق الصحيح الذي جعله واحدًا من فحول شعراء الجاهلية، وكان بينهم في الطبقة الثانية، على نحو ما صنف "ابن سلام" في طبقاته، وذلك بعد أن تركزت فيه ملامح جملة من الشعراء من أخصهم: "أوس بن حجر"، و"النابغة الذبياني"، ومن قبلهما والده الذي كان يقتفي "كعب" أثره معتزًا بالتشبه به في مثل قوله:

أقول شبيهات بما قال عالِمًا ... بهن ومن يشبه أباه فما ظلم

ومن هنا نرى تيارات هؤلاء الشعراء تسري في شعره، متمثلة في الأسلوب، ودقة التصوير، والإطناب، وامتداد الصور، واستقصاء الصفات، والميل إلى الحكمة.

وقد وصل في الشعر إلى أن كان صاحب بديهة وارتجال وحسن تصرف، ومما يروى في ذلك أنه ببديهته وحسن تصرفه أنقذ "النابغة الذبياني" من خطر محدق كان سينـــزل به "النعمان بن المنذر" وذلك عندما دخل "النابغة" على "النعمان" وأنشده بيته:

تخف الأرض إن تفقدك يومًا وتبقى ما بقيت بها ثقيلاً

فنظر "النعمان" إليه مغضبًا، وكان "كعب" حاضرًا فقال: أصلح الله الملك، إن مع هذا البيت بيتًا ضل عنه هو:

لأنك موضع القِسْطاسِ منها فَتَمْنَعُ جانِبَيْها أن تَمِيلا

حينئذ انفرجت أسارير "النعمان"، وأمر لهما بجائزتين.

ويصل الأمر إلى أبعد من ذلك في مجال تبيان منـــزلته الأدبية، حينما نسمع "خَلَفا الأحمر" يقول: "لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلتُ : إن كعبًا أشعر منه.

وفعلاً كان لأبيه منه ما أراد، حتى صار أحد فحول الشعراء في الجاهلية، وقد أقر له بالفحولة شاعر فحل كذلك، هو "الحطيئة" ، وإن لم يكن إقرارًا صريحًا. ولعل بيئة "كعب" الشاعرة كان لها أثر كبير في دوران شعره وشعر قومه على ألسنة الناس مما حدا "بالحطيئة" أن يطلب إليه أن يذكره في شعره، وأن يضعه موضعًا بعده، معللاً ذلك قائلاً: "فإن الناس لأشعاركم أروى، وإليها أسرع، حينئذ قال "كعب":

فَمَنْ للقوافي شَانَها من يَحُوكُها إذا ما ثَوَى كعب وَفَوَّز جَرْوَلُ
كَفَيْتُك لا تلقى من الناس واحدا تنخل منها مثل ما نتنخل
نقولُ فلا نعيا بشيء نقوله ومن قائليها من يُسيء ويجمل
نثقفها حتى تلين متونــها فيقصر عنها كل ما يتمثّل

إسلامه:

أما عن إسلام والد "كعب" فإنه لم يدرك الإسلام حتى يسلم أو لا يسلم، ولكنه رأى في منامه سببًا معلقًا في السماء، فمد يده ليتناوله فلم يصله ، فأوّل ذلك بظهور النبي العربي المرتقب نبي آخر الزمان – صلى الله عليه وسلم – وأنه يموت قبل بعثه، فأوصى أولاده باتباعه، وكان كما أوّل .

هذا ... وقد نرى أنفسنا نميل إلى تصديق ذلك، إذا ما عرفنا أن "زهيرًا" كان كثيرًا ما يختلف إلى أهل الكتاب، يسمع منهم، ويحاورهم، ويفكر فيما سمع وحاول، وهذا يتساوق مع ما أثر عنه من حكمة، وسريان تيار ديني في بعض من أشعاره، مثل قوله عن البعث:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفَى ومهما يُكْتَم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخّر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

وفي قوله – الذي أنكر الأصمعي نسبته إليه – :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما رأى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

بدا لي أن الناس تفنى نفوسُهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

أراني إذا ما بتّ بتّ على هوى وإني إذا أصبحت أصبحت ناديا

إلى حفرة أهدى إليها مقيمة يحثّ إليها سائق من ورائيا

ألم تر أن الله أهلك تُبّعًا وأهلك لقمانَ بن عادٍ وعاديا

وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون جبارًا طغى والنجاشيا

أما عن إسلام "كعب" :

فإن الله أجرى له الخير على يد أخيه "بجير" ولكن بعد زمن سفه فيه أحلام المسلمين، وهجا نبي الإسلام وصحابته، وقسا في هجائه وعدائه للإسلام، لدرجة جعلت الرسول يهدر دمه فيمن أهدر، خاصة بعد قوله مخاطبًا أخاه "بجيرًا":

ألا أبلغا عني بجيرًا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

فبيّن لنا إن كنت لست بفاعل على أي شيء غير ذلك دلكا

على خلق لم أُلْفِ يومًا أبا له عليه ولا تلقى عليه أبا لكا

فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسف ولا قائل إما عثرت لعا لكا

سقاك بها المأمون كأسًا روية فانهلك المأمون منها وعلّكا

قال – عليه السلام – بعد أن سمع هذه الأبيات التي أطلعه عليها "بجير": "من لقي منكم" "كعب بن زهير" فليقتله" ، فألح عليه "بجير" أن يسلم لينجو من العقاب الذي ينتظره، قائلاً له: "طر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض".

وكان "بجير" قد رد على كعب بهذه الأبيات:

من مُبلغ كعبًا فهل لك في التي تلوم عليها باطلاً وهو أحزمُ

إلى الله (لا العزى ولا اللات) وحده فتنجوا إذا كان النجاء وتسلمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلمُ
فدين زهير وهو لا شيء دينه ودين أبي سلمى عليّ محرمُ

فلما وصلت رسالة "بجير" إلى "كعب" ضاقت به الأرض بما رحبت، وأشفق على نفسه، وقد تناقل الناس ذلك وأوقعوا الخوف والفزع في قلب كعب، وأكدوا له أنه مقتول لا محالة.

وقد بدأت رحلة الإسلام في بيت "زهير" حينما تسامع الناس بذلك النبي الأمي الذي ظهر في "مكة"، فتذكر "كعب" وأخوه "بجير" رؤيا أبيهما "زهير"، ووصيته لأولاده باتباعه، فحرصا على أن يتثبتا من تلك الرؤيا، فانطلقا بغنمهما حتى بلغا "الأبرق" ، ونزلا بماء لـــ"بني أسد"، وقال "كعب" لأخيه "بجير": اذهب إلى هذا الرجل فاسمع منه، واعلم علمه، ثم عد إليّ، فلعل خبر السماء قد كان، ولعله صاحب هذا الخبر، فإن كان إياه ذهبنا إليه واتبعناه، فأتى "بجير" رسول الله واستمع إليه، وتلقى علمه، واستيقن أنه رسول الله، وأن خبر السماء قد كان فعلاً، فأيقن بصدق رؤيا والده، ونفذ وصيته، وشغل "بجير" عن أخيه الذي طال انتظاره لعودته، و لم يعد إليه ليطلعه على ما رأى وما سمع، ولعله لو عاد إليه لكان في ذلك أسرع بدخول "كعب" في الإسلام؛ إذ كانت نفسه

آنذاك صافية ومتأهبة لتقبل ما يقال عن الدين الجديد وصاحبه، ولكن عدم العودة أشعل نار الغضب في قلب "كعب" وتحول إلى عدو شرس للإسلام ونبيه وصحابته؛ إذ غاظه من أخيه أن يسبق إلى شيء كان "كعب" يريد أن يتساويا في الدخول فيه زمانًا ومكانًا، فكان ما كان من هجاء مسف للإسلام ونبيه وصحابته، يقابله وعيد بإهدار دمه.

فلما لم يجد "كعب" بدًا كان قد أشرق نور الهداية في قلبه، فالتمس طريقًا إلى الإسلام، وما كان إلا أن قدم المدينة متنكرًا خائفًا يترقب، فنـــزل على رجل من جهينة – أو أبي بكر- حيث سأل عن أرق أصحاب الرسول، فدل عليه، فلما صلى الرسول الصبح أتى به "أبو بكر" متنكرًا متلثمًا بعمامته، فقال: يا رسول الله، رجل يبايعك على الإسلام، فبسط الرسول يده، وحسر "كعب" عن وجهه، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، وكان الرسول لا يعرفه قبل ذلك، فتجهمته الأنصار وغلظت عليه لِما ذكر به رسول الله، ولانت قريش فرحًا بإسلامه، ولقد بلغ من تجهم الأنصار له أن وثب عليه رجل منهم، وقال: يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : **"دعه عنك؛ فإنه قد جاء تائبًا**

نازعًا عما كان عليه". فغضب "كعب" على هذا الحي من الأنصار، بسبب ما حدث من أحدهم.

ويبدو أن "كعبًا" كان كارهًا للأنصار قبل أن يسلم، بدليل أنه لم يتناولهم بشيء في بردته، يؤكد لنا ذلك أن قبيلة "مزينة" — التي ينتمي إليها "كعب" — كان بينها وبين الأوس تحالف ضد الخزرج، وقد حدث أن تقاتلت الخزرج والأوس، ومعها مزينة وفيها "جؤي"، وقد أصيب "جؤي" هذا ، ومر به "ثابت بن المنذر" الخزرجي والد "حسان بن ثابت" فقال له: يا أخا مزينة: ما طرحك في هذا المطرح، فوالله إنك من قوم ما يحمونك، فرفع "جؤي" رأسه إليه وهو يجود بنفسه قائلاً: أعطى الله عهدًا ليقتلن منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج، فبلغت كلمته "مزينة" فأثارها على الأخذ بثأره، وتنفيذ عهده، ورثاه "كعب" بأبيات، منها:

فإن تهلك جؤيُّ فكلُّ نفس   سيجلبها لذلك جالِبوها
ولو بلغ القتيل فعال قوم   لسرك من سيوفك منتضوها
لنذرك والنذور لها وفاءُ   إذا بلغ الخزاية بالغوها
كأنك كنت تعلم يوم بزّت   ثيابك ما سيلقى سالبوها
فما عتر الظباء بحي كعب   ولا الخمسون قصر طالبوها

بل إنه ليقال: إن بيت "كعب" الآتي في المهاجرين يعتبر تعريضًا بالأنصار لغلظتهم، وهو:

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

ولذلك أنكرت قريش ما قال، وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم، ومما يقال في ذلك أن الرسول قال له بعد أن أنشده بردته: **"لولا ذكرت الأنصار بخير؛ فإن الأنصار بذلك أهل"** [2] فيمدحهم "كعب" إرضاء للنبي – صلى الله عليه وسلم – وإرضاء كذلك للمهاجرين، فنراه يقول:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقتب من صالحي الأنصارِ
ورثوا المكارم كابرًا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيارِ
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبارِ
والذائدين الناس عن أدبارهم بالمشرفي وبالقنا الخطّار
والمكرهين السمهرى بأدرع كسوالف الهندي غير قصارِ
والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الإبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار

2

يتطهرون يرونه نسكًا لهم بدماء من علقوا من الكفار
ضربوا عليًا يوم بدر ضربة دانت لوقعتها جميع نزار
لو يعلم الأقوام علمي كله فيهم لصدقني الذين أمارى
قوم إذا خولت النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقارى
في الغر من غسان من جرثومة أعيت محافرها على المنقار

الحكمة في شعر كعب:

كما ورث "كعب" الشعر عن دوحته، فقد ورث الحكمة بنوع خاص عن والده، وبلغ فيها مبلغًا راقيًا في الأسلوب والمضمون، وهو ما سنلمس جانبًا منه في بردته، وجانبًا آخر نلمسه في مثل قوله:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعى الفتى وهو مخبوء له القدرُ

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها فالنفس واحدة والهم منتشرُ

والمرء ما عاش ممدود له أملُ لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثرُ

ومن حكمته التي تعكس خبرته بالحياة، وسبره أغوار النفس البشرية قوله:

إن كنت لا ترهب ذمي لـما تعرف من صفحي عن الجاهل

فاخش سكوتي إذ أنا منصت فيك لمسموع خنا القائل

فالسامع الذم شريك له ومطعم المأكول كالآكل

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر السائل

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

موقع كعب من فن الاعتذار:

يكاد "النابغة الذبياني" ينفرد بعرش فن الاعتذار وحده، لولا ارتياد "عدي ابن زيد" آفاق ذلك الفن، ولهذا فبعض النقاد يسلم رايته لـــ"عدي" دون "النابغة"، وليس هنا مجال الفصل بين الفريقين، ولكن يدعونا الأمر إلى الوقوف على بعض البواعث لدى الشاعرين، ثم نتلمس موقع فن الاعتذار من شعر "كعب بن زهير".

أما عن هذه البواعث فمنها:

اختلاف مفهوم الولاء بالنسبة لكل من الشاعرين، إذ هو بالنسبة لـــ"عدي" ينبغي أن يكون من "النعمان بن المنذر" إليه باعتبار معلمه ومهذبه، وأن ولاء "عدي" له لم تشبه شائبة، اللهم إلا حقد الحاقدين، ووشاية الواشين لقربه من قلب "النعمان" ، ومصاحبته إياه في حله وترحاله لتمكنه من توليته على الحيرة من قبل "كسرى" بدلاً من أخيه "الأسود" أما ولاء "النابغة" للنعمان فهو غير صادق فيه بدليل تحوله إلى الغساسنة حينما انتقموا من الذبيانيين

بالتنكيل والأسر لتعديهم على وادي أقر الخصيب، مما حدا بالنابغة أن ييمم وجهه نحوهم يقيم بينهم، ويمدحهم لافتداء أسراهم، مما أحفظ "النعمان" عليه.

كما أن المشاعر كانت مختلفة بين "عدي" و"النابغة" فيما يتعلق بالنعمان، إذ الأول يشعر بمرارة المربى الذي فقد المكانة المرموقة التي جعلته يخاطب "النعمان" كأنه أخوه في النسب بمثل قوله:

إن ابن أمك لم تنظر قفيّته　　　لـــما توارى ورامى الناس بالظلم

ويعتذر إليه في عزة القريب الذي يشعر بالتساوي معه في المنـــزلة فيقول:

مَحَلوا مَحْلَهم لِصَرْعَتِنا العامَ　　　فقد أوقعوا الرحا بالثَّفَال

ويلتاع حسرة – وهو الذي مكن "النعمان" من الملك دون أخيه – وتفشل اعتذاراته المرة حتى يلقى حتفه في السجن بموت طبيعي أو يقتل من قبل "النعمان".

أما مشاعر "النابغة" فهي مشاعر ذلك الذي ينتفع ويتطلع إلى العطف والعطاء، ومن هنا قل مديح "عدي"، وكثر عند "النابغة" ومن هنا أيضًا كان الصدق العاطفي فوارًا في شعر "عدي" لدرجة أن تمني الموت قبل أن يقع به ما وقع وذلك في مثل قوله:

ليت أني أخذت حتفي بكَفَّيَّ   ولم ألق مِيتة الأقتال

بينما كان الصدق غائرًا غائضًا في شعر "النابغة".

يعتمد "عدي" في تصوير التياعه على أناتٍ وزفراتٍ ملتهبة، بينما "النابغة" قد ملأ الآفاق بالضجيج والتهويل، وإظهار الخضوع والتذلل، عله يخدع "النعمان" عن نفسه فيصفح عنه، وفعلاً تم له ما أراد، بينما فشل "عدي" في الحصول على العفو من "النعمان" ؛ لأن طبيعة نفسه تختلف عن طبيعة نفس "النابغة".

وبالتدقيق في هذه البواعث نراها تدور في إطار دنيوي خالص، عصبه سياسي مادي ليظل كل من الشاعرين قريبًا من بلاط "النعمان" حيث الشهرة واكتساب المكانة المرموقة التي تقصر دونها أشعار الشعراء، فضلاً على توفير الأمن والاستقرار للنفس: حتى تعيش في الدنيا هادئة هانئة مطمئنة، تتقلب في مطارف النعيم والبهجة، مما لا يتوافر لها وهي مزعجة بالفراق والملاحقة، وفي الوقت نفسه يتحقق للشاعر ما يطمح إليه من مال وهدايا ومنح دون رهق أو مشقة، فكان الولاء من الشاعرين، وكان الاعتذار منهما أيضًا، تشوبه العاطفة الكاذبة على الأقل في بعض المواقف – من جانب النابغة على وجه الخصوص –

مما كان الشاعر يضطر معه إلى النفاق والكذب والمبالغة، ووصف "النعمان" بما ليس فيه أحيانًا، ليذيب الغضب الذي ران على قلبه.

أما اعتذار "كعب بن زهير" لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فليس للدنيا فيه بقية من ظل إلا أن يعيش سالِمًا معافى، وليس وراءه مطلب من مال أو جاه أو مكانة؛ لأنه علم يقينًا قبل أن يسلم أنه سيصير عبدًا ذليلاً لله ورسوله، وأنه سيتعرض لفقد المال والولد، وعلم أن ذلك لا يتوافر له إلا إذا أحب الرسول حبًا صادقًا خالِصًا لا نفاق فيه ولا خداع، كما علم يقينًا أن الولاء للرسول بالحب والطاعة إنما هو ركيزة من ركائز الإيمان القوية التي تجلب الحب والرضا والمغفرة، تصديقًا لقوله تعالى: **"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم"**.

ولأن الاعتذار لم يكن مطلوبًا في حد ذاته، لم نجد فيه القوة والتفخيم والاستطراد والإلحاح والمبالغة والإطناب على النحو الذي نراه عند "النابغة" ؛ لأن "كعب بن زهير" كان يكفيه مجرد إعلان الإسلام وهو ما يعصمه من سفك الدماء وعقاب الآخرة، وهذا يذكرنا بما أقدم عليه أحد الأنصار عندما وثب على

"كعب" وهو بين يدي رسول الله، فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – : **"دعه عنك؛ فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه"**[3].

ولأن إسلام "كعب" لم يكن في حاجة أصلاً إلى الاعتذار فإنه لم يطل فيه أو يستطرد؛ لأن مجرد النطق بالشهادتين يكفل له الأمن والأمان وحماية المال والعرض والنفس، وقلب النبي مفتوح لكل من يريد إعلان إسلامه ويدخل في دين الله، وباب التوبة مفتوح على مصراعيه، لا يوصده في وجه تائب توبة نصوحًا.

ولأن الاعتذار قائم على الشك في قبوله أو عدمه من قبل "النابغة" و"النعمان" فقد برزت ظاهرة الإلحاح على تبرئة النفس واضحة جلية في شعر "النابغة" حتى لا يشك "النعمان" في صدقه، والعكس صحيح بالنسبة للرسول – عليه السلام – و"كعب بن زهير".

كما أن الفرق واضح بين موقف الشاعرين ومدحهما، فبينما "النابغة" يحتال بالكذب وغيره، ويمزج الحقيقة بالمبالغة لشعوره في قرارة نفسه أنه غير صادق في كل ما يقول، فإن "كعب بن زهير" لم يقل إلا حقًا وصدقًا، وأمره مع

3

النبي لم يتطلب منه تحايلاً أو نفاقًا أو كذبًا، وما هو إلا النطق بالشهادتين ويجب الإسلام ما قبله.

ولعل هذا يفسر لنا قوة السبك، ودقة الأداء، وفخامة الأسلوب، وعظمة التصوير، على نحو لا نراه لدى "كعب" وهو يعتذر، مثلما نراه في شعر مثل شعر "النابغة"؛ لأنه – أي النابغة – بحاجة إلى الترفق والاحتيال على قلب الممدوح، حتى يفتح منه قلبه العصى، فطبيعة النفس في "النعمان" غيرها في طبيعة النفس لدى الرسول – عليه السلام – ؛ إذ "النعمان" يغضب لذاته، والرسول يغضب لله، فصفاء نفس الرسول يجعله يتقبل العذر بمجرد الاعتذار، أما نفس "النعمان" فصفاؤها تشوبه شوائب الحقد والغل والغضب، ما دام ذلك من أجل الذات نفسها، وفرق كبير بين أن يتعامل المعتذر مع نبي ورسول، أو مع إنسان مثله.

ومن هنا فإن الرسول قَبِل الإسلام من "كعب" ولم يرفضه للحظة واحدة؛ لأنه ترك حساب الإخلاص فيه أو عدمه لله سبحانه وتعالى، أما "النعمان" فهو الذي يعفو أو لا يعفو، وتساوقًا مع طبيعة نفسه البشرية، وفي ظلال الوشايات المتنوعة لم يتقبل عذر "النابغة" لتوه، بل بعد محايلة ووساطة.

الإسلام وطبيعة شعر كعب:

الناظر في بردة "كعب" قد يظن للوهلة الأولى أن الإسلام ألآن شعره.

والحقيقة أن البردة أنشدت وأعدت للإلقاء قبل إعلان الإسلام، فإذا ظهر في بعض أبياها لين لا فخامة فيه أو جزالة، فليس للإسلام دخل في ذلك.

والذي أراه أن الأسلوب، وبناء القصيدة، كانا يطردان مع الموضوع الذي تناوله الشاعر، فإذا ما تغزل رق ولان في كثير من تراكيبه، وإن لم يتخل طابع الفخامة عنه، وإذا تناول حديث الناقة أو الأسد أو الرمال، غلب طابع الصحراء الجاف على أسلوبه وصوره، وإذا تحدث عن الإسلام ونبيه وصحابته وتوجيهاته لهم، وتضحيات أبنائه، تردد بين السماحة والفخامة، حسبما يقتضيه الحال؛ إذ لكل مقام مقال، فهو في ذلك بليغ حيث يصدر منه التعبير على وفق مقتضى الحال.

وإن قال قائل: إن الإسلام لم يظهر إضعافه لشعر "كعب" في بردته؛ لأنه لم يتمرس بعد بتقاليد الإسلام وتعاليمه، وأن الضعف ظهر فيما بعد.

أقول: إن بعض أبياته في البردة رق رقة لا لين فيها ولا ضعف ولا إسفاف؛ لأنه استحضر معاني الإسلام ومراميه قبل إنشاء النص، فكأنه أنشأه في ظلال الإسلام – وإن لم يكن قد أسلم بعد – أما ضعفه بعد أن دخل الإسلام وتأثر به فمردود بقراءتنا لشعره بعامة، وشعره الذي أنشأه في خلافة "علي بن أبي طالب" وقد أشرف على الموت وتقدمت به السن بصفة خاصة.

الفهرس

الموضوع الصفحة

المقدمة

حول غزوة بدر (تنويه)

الغزوات

السرايا

إرهاص بهزيمة وانتصار

تفسير الربع الأول من سورة الأنفال

الآيات من (1-4).

الآيات من (5 – 8).

الآيات من (9 – 14).

الآيات من (15 – 21).

من أدب النبوة.

خطبة الرسول في أول جمعة جمعها بالمدينة.

رسالة "عمر بن الخطاب" في القضاء.

"حسان بن ثابت" (ترجمة).

"حسان يتفاءل بفتح مكة".

"كعب بن زهير" (ترجمة).

من بردة "كعب بن زهير".